غاية الحق

كتاب فلسفى اجتماعى أدبى

بقلم

المرحوم فرنسيس فتح الله مراش الحلبى

وقف على طبعه ونظر فيه

عبد المسيح انطاكى بك

صاحب جريدة العمران بمصر

قيمة النسخة عشرة قروش صحيحة

مطبعة العمران

العمران

جريدة عربية وللعرب

تصدر ١٢ مرة في السنة في ١١٥٢ صفحة

وتبحث في كلّ ما فيه مصلحة العرب وما يهمهم

« أسسها عبد المسيح أنطاكي بك سنة ١٨٩٦ »

« بادارة فتح الله ويحيى عبد المسيح انطاكي »

المخابرات مع الادارة في مصر بهذا العنوان :

مصر القاهرة : صندوق بوسطة الفجالة رقم ٤٣ : تليفون ٩٥ — ٤٠

المخابرات مع الادارة في العراق بعنوان بغداد : « ينتظر في البوسطة »

الادارة في مصر : في حارة الرويعي رقم ٩ بجوار ميدان الخازندار

قيمة الاشتراك في القطر المصري ١٢٠ قرشاً صاغاً وفي الهند والعراق ٣٠ روبية وفي سوريا أربع ليرات سورية ذهباً وفي الولايات المتحدة الاميركية ١٥ ريالا وفي البرازيل ٤٠٠ قرش برازيلي وفي أوروبا ٤٠ شلناً

ولا تقبل وصولات الاشتراك مالم تكن ممضاة من احد مديري العمران

يقبل العمران المقالات السياسية والادبية والاشعار الحكمية وينشرها مع الشكر اذا لاحظ فيها كتابها « مصلحة العرب الحقيقية » والادارة حرّة في اهمالها ما لا يتفق نشره مع مبدأها « العربي » الصريح

ينشر العمران من القصائد ما نظم لخدمة الامة العربية وانهاضها من كبوتها

وقلم تحرير العمران ينظر في كل ما يرسل الى الجريدة برسم النشر

مجلدات العمران هي خير مجموعة للأدب والعلم

غابة الحق

كتاب سياسي اجتماعي فلسفي

بقلم

المرحوم فرنسيس فتح الله مراش الحلبي

وقف على طبعه ونظر فيه

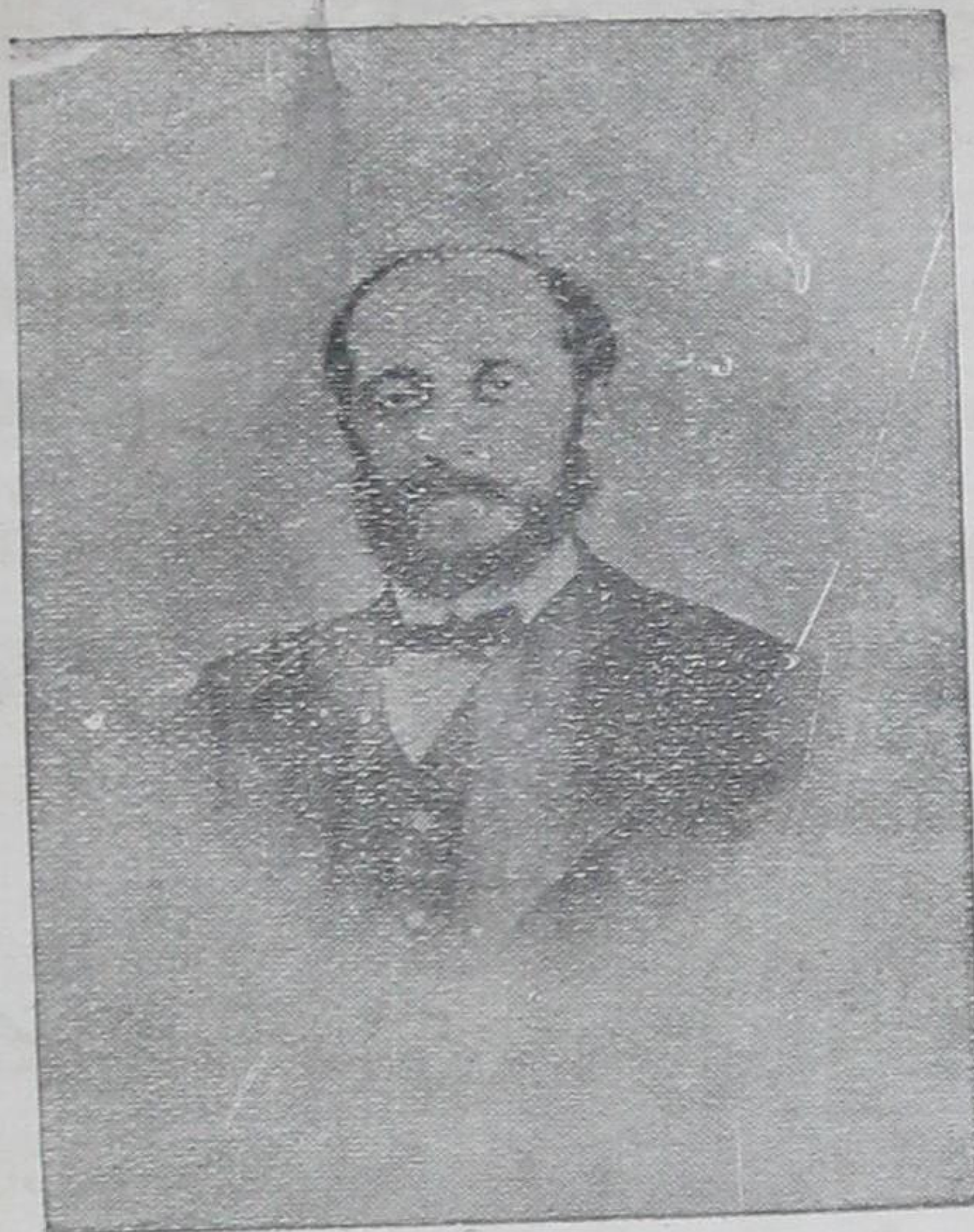
عبد المسيح انطاكي بك

صاحب جريدة العمران

وطبع على نفقته

ثمن النسخة عشرة قروش صحيحة

مطبعة العمران



«المرحوم فرانسيس فتح الله مراش الحلبي»

النهضة العربية

ان الذين اشتغلوا في النهضة العربية متهللون اليوم لا لان العرب قد تبوأوا المقعد الذي يحق لهم تحت الشمس بل لأنهم أخذوا يتحفزون لتبوأ هذا المقعد الذي من حقهم وسيكونون غداً أمة حية من أرقى الأمم الحية ان شاء الله تعالى وسيكونون متضامنين متآلفين متحدين باذن الله وما هم فيه الآن ان هو الا حالات عارضة قد مرّت بمثلها الامم عند تطورها. واذ كنا في مقدمة الذين اشتغلوا في هذه النهضة والثناء لله عزّ وجل كان علينا ونحن ملقون الحبل على الغارب للذين يتخبطون في دياجير هذا الانقلاب هنا وهناك في سبيل هذه النهضة المباركة ان نتعهدها دائماً بالنظر الى ماضيها بعين والى آتيها باخرى أما حاضرها فنحن ناظرون اليه بكلتي العينين باهتمام الذين عانوا في سبيل هذه الأمة الكريمة الامرّين

وما نحن بمخطئين اذا قلنا ان هذه النهضة المباركة قد اشتغل فيها آباؤنا من قبلنا اذ قام منهم أفراد صاحوا أصواتاً في هذه النهضة لم تكن والله صرخة في واد ولا

نفخة في رماد بل كان لها دويٌّ في الآذان وأورثت هذا الصدى . وأصحاب هذه الاصوات وان لم يكونوا كثيرين فقد كان لهم فضل المتقدمين السابقين

وفي نظرنا ان أول من أقدم على تنبيه خواطر العرب الى النهوض بشكل جدي هو وطنينا المرحوم فرنسيس فتح الله مراش الحلبي بكتابه الذي أسماه « غابة الحق » فقد وضعه على طراز « جحيم دانتي التلياني » بقالب خيالي نزع فيه الى ايقاظ قومه العرب من غفلتهم وطبعه في مدينة حلب في المطبعة المارونية سنة ١٨٦٥ على نفقة المرحوم « اليان نقولا اليان » أحد أذكياء أغنياء حلب وقد كان رحمه الله من الخيرين

ولا نحاول هنا أن نذكر ترجمة المرحوم فرنسيس المراش بل سنعود الى ذلك في فرصة أخرى ان شاء الله ولكننا نقول ان الرجل كان شعلة من نار سريعة الالتهاب . فالتهب وأضاء مدة يسيرة في فضاء العرب وما لبث أن انطفأ فانه لم يعش أكثر من ٣٥ عاماً ومات وهو فاقد البصر مُبرح الآلام

تعلم فرنسيس المراش على نفسه بمجرد اجتهاده فكان دائماً أبداً يطالع ويراجع وكتابه تحت ابطه ودواته في زناره فكان شاعراً بطبيعته وناثراً على النحو الذي كان شائعاً في ذلك الزمان الذي عاش فيه « سنة ١٨٣٩ — ١٨٧٤ » لأن نثر آبائنا في ذلك الزمن غير النثر الذي ننثر به كتبنا وجرائدنا في هذه الايام لان الناس في ذلك الزمن لم تكن لهم مدارس ولا كان عندهم جرائد تطبع وتذاع فتملأ الاسماع ولا مطابع تطبع من شتات الكتب قديمها وحديثها ما يهذب الالباب والطباع بل كانت النهضة في أولها وكان الافراد الذين تقدموا للكتابة ما عرفوا من لغة العرب وسلاستها شيئاً مما في الخزائن مخبوء فلا قرأوا كتابات ابن المقفع وابن خلدون والهمذاني ولا عثروا على نهج البلاغة الذي هو تحت كلام الخالق وفوق كلام المخلوق . ولا اتصلوا بأشباه هذه الكتب الحاملة ألوية الفصاحة وأعلام البلاغة لينحوا نحوها ويصقلوا عباراتهم بصقلها بل كان للناس من الكتب السقيمة العبارة ولا سيما التي نقلت الى الكنائس من اللغتين اليونانية واللاتينية ما يشوه جمال لغتنا الشريفة لذلك لم يكن للمرحوم فرنسيس المراش وسيلة لصقل عبارته حتى تكون لباساً جميلاً لجثمان أفكاره العالية التي همَّ بابرازها

من خبائها . وهذا كل ما تعاب به تاليفه الثمينة . أما شعره وقد كان شاعراً بطبيعته بكل معنى « الشاعر » فهو حسن وفوق الحسن لا يحتاج الاّ الى شيء من التدقيق اللغوي قد ضاق عنه وقته مع العلم ان القواميس العربية الكثيرة اليوم بين أيدينا لم يكن من السهل لمثله في عصره أن يصل اليها لانّ ماكان قد برز منها بالطابع لم يكن كافياً ولا كان من السهل الحصول عليه

ولا جدال ان أفضل ما تركه لنا المرحوم فرنسيس المراش هو كتابه « غابة الحق » الذي أشرنا اليه في مقدمة المقال فقد وضعه لغرض سامٍ وهو ايقاظ أمته العربية من سباتها الطويل في ظلال الاستبداد والذلّ والعبودية وقد جعله بشكل حلم حلمه كأنه رحمه الله كان يخترق بفكره الثاقب حجب المستقبل المظلمة ليجد نور الحرية الى قومه فتضيء لهم وتهديهم الى رحبات المعيشة الرغدة الهانئة

ولا بدّ لنا من الاشارة هنا الى أن ما نعرفه نحن اليوم بعد الحوادث الجسام التي مررنا بها واعتبرنا بعبرها ماكان يعرفه آباؤنا فلا عجب اذا وجد القاريء اللبيب في « غابة الحق » بعض أمور لا يقرّ المؤلف عليها . كما ان آباءنا كانوا في بيئة غير التي نحن فيها . فانهم كانوا بين أناس لقد سدل الجهل والتعصب الذميم والتمسك بالعوائد التي ألفوها ستاراً مظلماً كثيفاً فما كان من السهل كشفه عن أبصارهم لكي يروا هذا النور من غير أن يتعرض من يحاول ذلك الى معارضة تيار مخيف من الرأي العام وهذا ماتعرض له المرحوم المراش في حياته فكان في مشادّة دائمة مع معاصريه ما انتصر فيها الا بشجاعته وبعيد همته

هذا مانجعله تمهيداً لكتاب « غابة الحق » الذي ننشره اليوم تخليداً لذكرى ذلك المجاهد العربي الحرّ رحمه الله . ورغبة في اعادة بسط نظرياته الخيالية ليطبقها أهل هذا العصر على ماوصلوا اليه اليوم وسيبلغونه في المستقبل القريب ان شاء الله

واننا قد تصرفنا بعض التصرف في بعض كلمات وتراكيب الكتاب مما لم نخرج به عن المعنى الذي قصده المؤلف رحمه الله رغبة منا بان يكون الى درجة ما سلس العبارة خالياً من التعقيد

والله المسؤول أن يوفقنا الى خدمة الامة الكريمة العربية بكل ماأوتيناه من جهد سبحانه على كل شيء قدير

مصر في ١٥ مايو سنة ١٩٢٢ عبد المسيح انطاكي

غابة الحق

مقدمة المؤلف

اني بينما كنت ذات ليلة ضارباً في أودية التأملات العقلية. وطائراً على اجنحة الافكار المتبلبلة في جوّ الهواجس والاحلام التخيّلية . واذا قد انفتح لدى اعين خواطري مشهد عجيب تلعب به اشباح الأعصار السالفة . وترن في هوائه نغمات الشعوب الغابرة وراء حجب التواريخ الخالدة . فرأيت ممالك العالم القديم تتعالى الى أوج العظمة والكرامة . وترتقي الى سدرة الآداب والتهذيب . حيثما ينتهي مجد الانسان النازل من الخليقة منزلة الاوّل من العدد . فبينما كنت أرى المصريين مشتغلين بتهذيب الفلاحة والزراعة وتربية العلم وصناعة الايدي . والاثوريين مجدّين باختراع ظرافة المشادات والابنية . والفينيقيين آخذين بتوسيع المتاجر ونهج سُبل البحار وتقريب صلة الهيئة الاجتماعية . واذا براية فارس مقبلة من بعيد حاملة شمسها الساطعة وأسدها الزائر . وهي تخفق على رؤوس جيش عرمرمي فوق صهوات الخيول الصاهلة التي كلما كانت تضرب بحوافرها أديم الارض كانت تُثير غباراً يُلقي وخط الشيب على هامة الزمان و ينسج برده الاشهب لجسد التاريخ . وهكذا لم يزل يتهاجم ذلك الجيش الجرار تحت تلك الراية الخافقة الى ان مدّ بساط صوته على كل اولئك الشعوب الذين كانوا يرفلون بذيول الثروة والنعيم . فاحنى كل ركبة لدى تلك النار الفارسية وأهال كل قلب بطلعة ذلك الاسد السائد . وما برحت دولة فارس متمتعة بتلك الاراضي المحروسة وذاك الغنى الوافر . حتى برزت عساكر مكدونية واحدقت من كل جانب تحت اعلام الاقدام والبسالة مثيرة لهب الحروب الهائلة الى أن ظفرت بجميع هاتيك الممالك واخمدت نار فارس . ولم يزل الصولجان المكدوني يفرع تقدما ونجاحا . وفسحة ذلك الجوشن تتسع بالسطوة والاقتدار الى أن رأيت

نسر الرومانيين صاعداً من الشمال وهو يخفق باجنحة النصر والظفر منقضاً على كما أذخره المكدونيون من تلك الممالك الواسعة والبقاع الشاسعة . وهكذا قد بسط جناحيه وخيّم على العالم. فانتصب لدى عيني حينئذٍ قوس النصر الروماني في وسط ساحة الدنيا وعدت أرى جميع شعوب الارض تتقاطر أفواجاً وتمرُّ تحت ذلك القوس العظيم اشارة للخضوع والطاعة . وما برحت تلك الدولة العجيبة تمتدُّ وتتسع منتفخة بالغلبة والجبروت الى أن انشطرت الى شطرين عظيمين . فكان الاول شرقياً والثاني غربياً فأخذ ذلك يتعاقب بين ارتفاع وهبوط تحت رحمة الاقدار . وهذا يتشعب و يتفرع الى جملة ممالك وولايات تحت اختلاف الاطوار . ولم تزل تحصحص لاعين تأملاتي تلك الظواهر الى أن انفتح أخيراً لدى أبصار تبصراتي باب رحب مكتوب على قنطرته «العقل يحكم» ومنه عاينت برية فسيحة جداً . وظهر لي عن بعد علم يخفق متقربا فوضعت نظارة الاختبار وأمعنت النظر فرأيت مكتوباً عليه . «العلم يغلب» وظهر لي حينئذ من ورائه جيوش التمدن الزاهر ممتطية متون الاختراعات العجيبة والمعارف الكاملة وهي تتخطر متموجة بأنوار اسلحة الحكمة والعدل متدرعة بدروع الحرية الانسانية والخلوص المحض . ورأيت أمام هذه الجيوش المظفرة تتراكض ممالك الظلام مع كافة اجنادها ناكصة على اعقاب القهقرة والانكسار وهي تزاحم بعضها البعض الى الهبوط في لجج العدم والاضمحلال حيثما لاحركة ولا صوت . وهكذا مدَّت دولة العقل قوتها على كل بقعة ومكان وعمَّ السلام على كافة المسكونة . وفيما أنا مشمول بشمول هذه المرئيات التصورية في هذا العالم الفكري ثمل بما أشاهده في هذا المسرح الجديد الذي تتلألأ بهِ شموس هذا العصر الحديث واذ قد ظهر لي من وراء الافق الغربي دخان كثيف مدلهم . وأخذت اذناي تسمع لغطاً آتياً من بعيد يشبه لعلعة رعد صادر عن بعدٍ شاسع وكادت حينئذ نواظري تستلمح وميض اسلحة الحرب واذ داخلني روح العجب لما عاينت من هذا المنقلب ونادتني أصوات الاخبار الشائعة قائلة . هو ذا العالم الجديد (اميركا) قد رفض قبول شريعة العبودية ولذلك قد نهض ضدَّ هذه العادة الخشنة بالاسلحة والنار اذ ما عاد يحتمل

وجود بقية لدولة التوحش على سطح الارض . وهذا دخان الوقائع الحربية يبرقع وجه السماء وتموجات رعود المدافع تتفتح في كتلة الهواء . فعندما استوعبت هذه الحوادث ووفيت التمعن حقه تلاعبت يد الاضطراب في جهاز الحيوة ومالت الاعضاء الى الراحة ولم أزل كفريسة ترتعد بين مخالب تلك الانفعالات الى أن أخذتني سنة المنام وانفتح لدى اعيني مسرح الاحلام

الفصل الاول

الحلم

ولما عرتني لجج الرقاد وجدت ذاتي متخطراً في برية واسعة وكان يظهر لي عن بُعد غابة عظيمة ذات أشجار ضخمة عالية باغصان متكاثفة الاوراق ملتفة بعضها على بعض بنوع انه لا يمكن لاشعة الشمس أن تخترق قبابها الشاهقة الواصلة الى كبد السماء لكثرة التفاف غصونها واندغامها . وكانت تفرش على الارض بساطاً ثخيناً من ذلك الظل الذي لا يتقلص و بعد ان أجتهدت في المسير وتبطنت هذه الغابة رأيت نفسي من ثمَّ محاطاً بسكوت عميق يتخلله من فترة الى أخرى هدير مبهم يشبه دوى غدير متدفق ممزوج ببعض زمجرةٍ من وحوش الغاب أو تغريدات من طائر السماء . فأخذت اتتبع هذا الصوت الذي يظهر كأنه ينعي ألم الوحدة أو يبثُّ شكوى الفراق ولم أزل مهتديا به الى اصله وأنا أركض تارةً واتوقف اخرى الى أن انتهى بي الجدّ الى فسيحة واقعة في جوف تلك الغابة ومحاطة بسياج من أعظم الاشجار وهناك رفعت نظري فرأيت السماء حينئذ متحدبة على تلك الفسحة المحاطة بذلك الشجر الهائل كتحدّب قبة من زجاج على عمد وقناطر من زبرجد . واذ أطلقت نظري قليلا وجدت صخرة منفردة القيام مضجعة على ناحية يتدفق في أسفلها ماء غدير عظيم تدفقا يسابق الطير سرعة وهو يتشعب الى جوارٍ تذهب متشتتة في اقطار ذلك الحوش تاركة عند انفصالها صياحا وانينا موجعين و بينما كنت شاخصا في هذا المشهد البهج ومتأملا بما تصنعه الطبيعة من الفلتات الغريبة . واذا بعاصف من الريح قد نهض من

سكناته وهبَّ هبوباً كاد يقتلع جميع الغابة ويطير بها الى أعالي الجبال الشامخة . فاغمضت نواظري اذ ذاك لدى تلك الزوبعة الطائرة خوفاً من لذع غبارها الثائر ولما فتحت أجفاني رأيت عرشين منتصبين أمامي على الفور كأنهما مصاغان من الذهب الابريز وهما مرصعان بافخر الاحجار الكريمة ، ووضعهما كان قريباً من تلك الصخرة وذلك الغدير . وفي كل منهما لمحت شخصاً جالساً وعليه من اللياقة والكمال ما لم تسمع به اذن ولم يخطر على قلب بشر . أما الشخص الاول فكان رجلاً لابساً برفيراً ارجوانياً يتلألأ كأنوار الضحى وفي يده اليمنى صولجان طويل وقابض باليسرى على رقعة مطوية بغير نظام . وهو معتقل سيفاً ذا حدَّين وعلى رأسه تاج مكتوب على اكليله «يعيش ملك الحرية» وكانت عيناه تتناثران شرراً وهو مقطب الحاجبين واجم الوجه بحيث يتضح للناظر كونه منفعلاً بنوبة عظيمة من الغضب لامور تدخل في سياسته وكان شاخصاً في نقطة من الافق يتصاعد منها دخان وقتام

أما الشخص الثاني فكان امرأة . وعلى ما لاح لي أنها زوجة الاول وهذه الامرأة قد كانت ذات وجه بيضوي الشكل يلوح عليه حسن بلغ أعلى درجة من سلم الجمال . فعينان تنبعث منهما أنوار الحوَر على سواد الكحل . واجفان كأنها سكرى بخمرة الفتور أو مأخوذة بسحر الغزل . وحاجبان كأنهما صُوّرتا بقلم رافائيل أو نُقشتا بازميل ميخائيل قد جمعتا بين الاقتران والزجج وجمع جبينها بين السعة والبلج . وكان رأسها متوجاً بشعر مسترسل يترامى على أقدامها كطاقات شفافة بهيأة تكل عن احاطة تشخيصها الصناعة . وسواده يتموَّج بسنا الصقال اللامع كالليل الذي يخامره ضياء الفجر الساطع . وهو مكلل باكليل من الذهب والغار علامة الظفر والانتصار وكانت وجنتاها صفحتي لجين قد اندفع اليهما نور الشفق . ومباسمها كشقيق أخذ يتفتح اذا ما الصبح انفلق . وكان جيدها قد صيغ من بلور لطيف . يعلو على صدر يحمل كرتي مرمر نظيف . أما معصماها فقد كانا لدوائر الاساور مركزين يرسلان اقطاراً متساوية الاتصال . وكذلك ارساغ قدميها كانت تزدان بخلخاليها . أما لباسها فقد كان جامعاً لكل الحشمة بحيث لم يكن سوى جلباب عريض حريري النسيج

يُحيط بجميع قوامها من العنق الى الاقدام مزرّراً على صدرها ومستدقاً عند معطفها يُحيطه كنطاق ومن هناك يأخذ بالاتساع الى الاسفل بدون أن يُبدي مشهد قبة عظيمة ....

وبينما كنت أنظر اليها نظر المندهش الحيران مأخوذاً بخمرة ذلك الجمال البديع مضطرباً بوقوع تأثيراته على قلبي الذي كنت أضغطه بيدي خوفاً أن يطير شعاعاً. واذ قد لاح لي سطر من أحرف نارية على اكليلها الذهبي يعلن هكذا « فلتحيى الحكمة »

واذ شرعت أتأمل بعد تلاوة تلك الاحرف في أبهة هذه الملكة المتواضعة. رأيت جبينها زاهراً بأنوار النباهة والذكاء وعيناها تتقدان باشعة التعقل والفطنة وصدغاها متسمان بالحزم والرشد وهي تبتسم بالبشاشة والوقار ملتفتة الى ذلك الملك الغضبان التفاتاً يرسم شكل القمر في الليلة الاحدى عشرة ومنحنية أمامه بيد منبسطة تستميل خاطره وتستعطف قلبه بكلام يقع في السمع وقوع الدرّ في الصدف فسمعتها تقول له هكذا :

— نعم لا يجب التغاضي عن هذا الملك الظالم الذي لا يبرح مجتهداً بزرع زوان الخشونة والتوحش في حقل مملكتنا ذات التمدن والتهذيب. ولا ينبغي الاضراب عن استئصال كل أعوانه وأنصاره الذين يلبسون ثياب الحملان وينفردون ما بين خراف رعايانا كلما غفلت عنهم أعين التيقظ والانتباه واضعين على وجوههم براقع المكر والخديعة. حتى اذا ما تمكنوا من استمالتهم بقوّة الاحتيال يأخذون حينئذ في افساد ضمائرهم السليمة. مظهرين لهم شرف التعبد لملكهم وما عنده من الفوائد والمنافع الى أن يطرحوهم أخيراً بأيدي ذئاب عبوديته. ولكن مع ذلك لا ينبغي معاملة ذلك الملك العنيد وأولئك الاعوان المردة الا بما يقتضيه قانون شريعتنا العادلة. أي بالاناة والحلم واللطف لئلا يحسبنا الذين يجهلوننا ظلاّماً أو حمقى.

— كيف يمكنني أن أعامل هؤلاء القوم بما تقتضيه نواميسنا حسبما تشورين مع أنني قد أفرغت جهداً طويلا وتكلفت تعباً ليس بيسير حتى أوقعتهم أخيراً في

قبضتي . أفما يخشى من هربهم بواسطة الحيل والخداع الى حيث لا نعود نظفر بهم ثانية . فها أنا قد اعتمدت على شنق هذا الملك الخبيث وسجن جميع حفدته وعبيده مؤبداً وعلى دثار جميع مملكة العبودية بكل سرعة وما عاد لي حاجة لما كانت تدفعه هذه الدولة من الخراج لأن جميعه آت من مال الظلم .

— إيك تصنع هكذا يا أيها الملك المعظم لئلا نفتح سبيل التمرد والعصيان امام شعوب مملكتنا وتعود القوميات الاهلية الى الثورة ثائرة لانه معلوم لديك كم وكم من الناس يميلون طبعاً الى تلك الدولة ما عدا الذين قد مالوا اليها بقوة الفساد والغش فاذا لا سمح الله أخذت الحروب الأهلية بالانتشاب نعدم راحتنا ونقع في وجل عظيم فتصير المصيبة الأخيرة أشرّ من الأولى . اذ نكون كالطبيب الذي يسرع الى سفك الدم حالا في الحميات الخبيثة بدون ملاحظة المزاج والبنية فيهلك المريض بشدة انحطاط اقوى الحيوية .

فاشور عليك اذاً يا أيها الملك الجليل وأرجوك أن تتنازل الى قبول مشورتي وأن تستحضر لديك ذلك الملك العنيد مع أهم أعوانه وتضع لهم شرائع وقوانين جديدة يسلكون بموجبها . وتشدد ذلك الوضع بالصرامة اللازمة بعد توبيخهم وتبكيتهم ثم تجعل لكل منهم ناظراً من طرفك وكذلك يجب أن تكون اكثر عساكرهم من جنس عساكرنا كيلا يعود لهم مقدرة على مخالفة الناموس أو العصيان والتمرد ولكي يعلموا انك أنت هو الملك الاكبر مقداراً والاشد عزيمة والاوسع مملكة واجناداً وانه بأي وقت تشاء يمكنك شنّ الغارة عليهم وأسرهم وسجنهم حسبما فعلت الآن

— قد ظهر لي الآن من كلامك يا أيتها الملكة السعيدة انه يجب ارجاع هؤلاء الظلمة الى مملكتهم بعد تلك الحروب التي اثرناها عليهم وكل ذلك التعب . فأنا اعجب منك كيف مع كونك بهذا المقدار حكيمة تردّين عليّ بمثل هذا الرد ولا تشورين عليّ باستئصالهم عن آخرهم لكي نأمن غوائلهم ومكائدهم .

فقاطعته الملكة قائلة : ان شوري عليك يا أيها الملك الجليل بوضع شرائع

جديدة لأولئك القوم أصحاب تلك المملكة المشؤمة وباستصحابهم مناظرين عليهم من طرفنا وبجعل اكثر عساكرهم من جنس عساكرنا انما هو عين استئصالهم وابادتهم لان بذلك يعود يمكننا وضع اليد على مملكتهم وضمها الى مملكتنا بكل سهولة وبدون أدنى انزعاج لداخليتنا ولكن مع طول الزمان والصبر، الامر الذي به قد نجحت اكثر ممالك العالم حسبما تخبرنا التواريخ . ولكن اذا أوقعت بهم الآن حد السيف بدون التبصر بعواقب العجلة فاخشى عليك من الوقوع في بلبلة البال والندم على المحال .

وبينما كانت هذه الملكة الحكيمة تبسط آراءها لذلك الملك الجليل واذا برجلين مقبلين من جوف الغابة باقدام مهرولة وبوجوه عليها سيماء الاشتغال ولم يزالا يتقربان الي ان وصلا أمام المظهر الملوكي وسجدا هنالك بكل احترام ووقار . وكانا متدرعين باسلحة الحرب وأعينهما ملتهبة بضرام المواقع . واحذيتهما متوشحة بما نسجه النقع والدماء سائلة على حد ظباهما ومضمخة ثيابهما العسكريّة . وكان مكتوبا على خوذة احدهما : «هذا قائد جيش التمدن» وعلى منكب الاخر . «هذا وزير محبة السلام »

وعند ماوقعت من الملك التفاتة عليهما حيَّاهما بالاكرام وقال لهما هات اخبراني بما فعلتما شفاهاً . فأخذ الاول يسرد الحوادث هكذا .

— ان نصرتنا الكاملة على الاعداء لم تحتمل اكثر من سوقتين . أما الأولى فكان حدوثها على هذا الوجه وهو . ان هؤلاء الاخصام عندما شاهدوا جيوش آدابنا المستظهرة مقبلة عليهم فرقاً فرقاً اسرعوا حالا الى قتالنا منظمين صفوف اجنادهم وقاومتهم وأخذوا يدافعون هجومنا عليهم بنيران مدافع العناد بدون أدنى اكتراث بنا . وكان حامل علمهم رجل يُسمى بالبغض . فعند مالاحظنا وقاحتهم هذه زمرنا حالا ببوق النار الدائمة ورفعنا لواء الهجوم وعدت ترى حينئذ جيوشنا الغضنفرية الظافرة غائصة في سحب دخان الغيرة متلألئة ببروق صحيح التعاليم على صهوات جياد المدارس التي كانت تحمحم طلباً للهجوم وشوقاً للاقتحام : ولم تزل بزاة براهيننا تنقض على

صفوف الاعداء كالصواعق من أفواه مدافع جيوشنا المظفّرة التي كانت ترعد تحت سماء حرب الحرية . ولم تبرح بنادق الفاظنا تمطر عليهم رصاص العزيمة الى أن رأيت تلك الصفوف أخيراً متفرقة كبنات نعش ومنهزمة أمام نظام فيلقنا الذي كان يحكي الثريا شملا والجوزاء مسيراً . هكذا لم نزل هاجمين عليهم وهم ناكصون على أعقابهم متقهقرين حتى ظفرنا بالغلبة والانتصار وتركنا أكثرهم بين قتيل وجريح . والبقية ادبروا وحاصروا في معاقل الآراء السخيفة التي الفوها وحسبوها حقائق غير قابلة التحويل .

أما الوقعة الثانية فقد كانت على هذه الكيفية وهي : أن أولئك الاعداء قد أرسلوا الينا رسولا حاملا من طرف ملكهم رسالة بها يعدنا أنهم يتركون الاسلحة بشرط أن نتنحى عنهم قليلاً عساكرنا . فوعدهم سعادة رفيقي هذا (وأشار الى وزير محبة السلام) أن يصالحهم وكتب لهم بذلك رقعة ودفعها للرسول فاخذها وذهب وهكذا أتممنا الوعد ، ومذ شاهدوا تنحّينا عن معاقلهم طمعوا بمسالمتنا لهم وأخذوا يجمعون عساكر جديدة بعزم جديد . واندفعوا علينا ثانية كالوحوش الضارية تحت ادارة سبعة قواد تسمى بالارواح الشريرة . وكان حامل علمهم جندي يقال له الخيانة فعند ما رأينا تأهبهم للقتال وهجومهم علينا اغتيالاً ومفاجأة تحت لواء الخيانة . هرعنا حالا الى أسلحتنا القاطعة وقابلناهم بامواج كتائبنا المنتصرة وأخذنا نصادمهم مصادمة بني أسد لبني كلب ، وكنت أنا وهذا الوزير نخترق صفوف جيوشهم شاهرين سيف الهمة والمسعى ونضرب يميناً وشمالا بكل عزائمنا لكي نشدّد قلوب الجنود المنقضة عليهم كالنسور وكان دخاننا يبتلع دخانهم ورعود مدافعنا تُخرس مدافعهم ، ولم نزل نجزر مدّهم ونفلّ حدّهم حتى استظهرنا عليهم مليًا ، وأوضحنا تقهقرهم جليًا ، ولم نرجع عنهم حتى أوقعنا جميع عساكرهم وقوادهم في قبضتنا بعد حرب ضروس قامت على ساق وقدم ، وأشهر من نار على علم ، ولم نكتف بهذه الغلبة

فقط بل دخلنا أيضا الى معاقلهم الحصينة لكي نستخرج ما فيها من القوات ، وبينما كنا نتجسس ونبحث تلك الحصون واحداً فواحداً وجدنا في احدها رجلاً هرماً قد نفضت اقدام الايام على هامته غبار الشيب وهو مختبيء في احدى زوايا احدى الغرف وكان ناكس الرأس مكفهرّ الوجه منحطّ العزائم والقوى ذارف الدموع منحني الظهر حتى كأنه صنم لا يستطيع اتيان أدنى حراك ، نقبضنا عليه أيضاً وأخرجناه الى الخارج وربطناه مع سبعة قواده المذكورين ومن يحمل عاره بسلسلة حديدية ووضعناهم في سجن عندنا تحت الاسر ، وحالاً أخذت قلماً وقرطاساً وسطرت به هاتين الموقعتين بحذافيرهما على وجه الاختصار ، وأرسلت الاسطر الى عظمتكم مع بريد مخصوص

— أجاب الملك قد وصلتني رقعتكم مع البريد المذكور ، ولكنني لم استوعب كل الحوادث حسب الواجب ولذلك رددت اليكم البريد لكي يدعوكم الى هنا لاقف على جليّة الامر منكم مشافهة ، فمن هذه الرقعة التي ابرزتموها لي لم أعلم سوى موقعة واحدة ، وانكم موعودون من الاعداء بالتسليم وترك الاسلحة بينما كان نظري يسبق ويرى من بعيد دخان وغبار معركة مخيفة ، وأذني كانت تسمع لغطاً يشبه دويّ رعدات من أفق بعيد ولم البث ان أغرقتني لجة البلبال اذ أنني لم أعلم النصر لمن يكون

— نعم ان هذه المعركة التي هي الثانية ربما كانت جارية بينما كنتم تشرّفون معروضنا بتلاوته ، لاننا بعد بُرهة قليلة من نهاية الكفاح الاول حيثما أسرعنا الى أخبار عظمتكم ، فزنا بالمعترك الاخير ونوال النصر والظفر من حيث لا تعلمون ومع ذلك كنا نقتصر على انجاز تلك الموقعة الاولى حسب المرغوب لو لم يدخل غش هؤلاء المردة على سلامة قلب وزير محبة السلام (وأشار اليه) أما هذا الاخير فقد كان مطرقاً ببصره الى الارض غير متحرك وكأنه واقع في هواجس كثيرة فالتفت الملك اليه وقال له :

— بالحقيقة أن سلامة قلبك قد صارت السبب الوحيد لنشوب تلك الموقعة

الثانية؟ لانه لو كنت تعرض عن تصديق دعوى أعدائنا بالتسليم عالما ان الحرب خدعة، لكانت جيوشنا أنهت المرقعة الاولى حسبما اقتضت الثانية وكنا غنينا عن ثقلة هذه الاخيرة ووفرنا رجالا ومالا

— فأحنى الوزير رأسه لدى الملك وقال: انه لم يخطر لي البتة امكان هجوم هؤلاء البرابرة علينا مرّة ثانية بعد ما شاهدوا ما شاهدوه من بسالة جنودنا الاقوياء في الحروب، وتيقنوا جيداً عجزهم وضعفهم بالنسبة الى ثباتنا وقوتنا، فقد جرت الاقدار بما لم يخطر في الافكار، ومع ذلك فليس اجابتي لطلبهم كانت مسبّبة عن اقتناعي فقط بكونهم لا يجسرون على محاربتنا ثانية، بل وعلى طمعي بحقن الدم أيضاً اذ قد خطر لي انه اذا لم نجب طلبتهم وواصلنا الحصار والهجوم. فقد يمكن ان يجري نهر من الدماء حسبما جرى ذلك في كثير من مواقع العالم من عهد يشوع اريحا الى تيطس اورشليم ومن بعده .... !!

فقاطعه الملك قائلا: انه يوجد في طريق الانسان كثير من الموانع التي لا يمكن الحصول على رفعها الا بسفك الدم وكذلك قد يصيب الانسان كثير من الحوادث التي لا يمكنه دفعها الا ببذل الروح وعلى كل حال.

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى   حتى يراق على جوانبه الدم

ولكن يا أيها الملك المعظم ليس بجيّد للانسان ان يسرع حالا الى اهراق الدماء على نزر الاشياء . وليس جميع الحوادث والاحوال تساوي الدم الانساني الذى لا يوجد أثمن منه . ولا يجب مضارعة اولئك الشعوب الذين يبادرون الى شنّ الغارات والفتك ببعضهم البعض على مآرب لا يُعتدُّ بها أو خرافات لا ثبات لها في رقعة التمدن بحيث يؤول صنيعهم هذا ليس الى دمار ودثار اخصامهم فقط بل والى انحطاط وخراب هيئتهم ايضاً. اذ أنّ الرجل الظالم يرجع ضرره على نفسه وعلى هامته يهبط ظلمه.

فلا برهان اذن على سمو عقل الانسان وترويض اخلاقه ودعة سجيته اعظم من محبته السلام ونفوره من الحروب والخصومات . على انه بالسلام تنمو الهيئة

الاجتماعية وتتوسع دائرة تقدمها بالثروة والمعارف والآداب . بالسلام تخصب الحقول وتعطي الارض غلاتها وتجود الفلاحة ويكثر الحصاد . بالسلام تعمر البلاد والقرى وتتسع التجارة التي عليها يقوم مدار الاشتراك الاقتصادي مع كافة العالم . بالسلام تتقوى الممالك وتعظم رجالا ومالا . وبالاجمال انه بالسلام يقوم شرف البلاد وصالح العباد . ولكن اذا اخذنا نتصفح الحروب وغوائلها انما نرى العكس تماماً . على انه بالحرب تتبدد الهيئة الاجتماعية وتضيق دائرة تقدمها ونجاحها حيثما يرسل اليها مركز الجهل قاطرات الخراب ، بالحرب تمحل الارض وتضن بانتاجها وتتقهقر الفلاحة ويقتر الحصاد ، بالحرب تنهدم البلاد وتغور المتاجر في اودية الاضمحلال وتنقطع الشعوب عن مشاركة بعضهم البعض ، بالحرب تضعف الممالك وتقل رجالا ومالا ، وفي النتيجة انه بالحرب تذل البلاد وتباد القبائل ويسود الخراب ، ومع كل ذلك فقد يلد السلام حروباً والحروب سلاماً ، بناء على ان زيادة الراحة قد تنشئ اضراراً جمة لا تذهب الا بواسطة التعب والرياضة . وهكذا ايضاً زيادة التعب قد تسبب جملة اعراض رديئة لا يمكن ان تنجو منها الانسانية الا تحت سلطة الراحة والسكون ، اما ترى حينما تمردت علينا مملكة العبودية واخذت تفسد في الارض بواسطة اعوانها وتعوث بسذاجة شعوبنا فساداً كيف نهضنا ضدها مبادرة واشهرنا اسلحة الحروب عليها حذراً لئلا يبتلعنا القعر وتطبق البئر علينا فاها ، وهكذا اتممنا تشتيت شمل العدو وصحنا عليه بصافور الغلبة والظفر ضارباً بين بطبول الحرية التي نحن اولادها ، وحينئذ فانا وزير محبة السلام كما تدعونني قد اخترقت بذاتي جماهير معسكر هؤلاء الاعداء ، واقتحمت قلاعهم منتضياً سيف الهمة والمسعى حتى انزلت بهم النكال ، دفعاً لوقوع القلق والاضطراب في بلادنا ، ورفعاً لتسلط القبائل الاجنبية علينا الامر الذي يفعل الخراب اكثر مما تفعله الحروب ، فهنا نرى ان السلام قد أنشأ حرباً .

وعندما تسترجع هذه الحروب راحتنا السابقة وهدونا الاعتيادي منادية : ليكن سيف السلطان طويلاً نقول من ثمَّ : ان صخرة الحرب قد افاضت مياه السلام الدائم الذي به سيتمتع كل آت بعدنا كما يتمتع بماء هذه الصخرة التي فجرتها العناية

بعصا موسى لعتق كل سارح في برية الحرية او في غابة الحق (واوما الى الصخرة التي يتدفق منها الماء واحاط بالايماء جميع الغابة) وبينما كان هذا الوزير يتكلم كانت الملكة الجالسة بوقار وحشمة ومتكئة على ساعد العرش السامي تظهر الارتياح بتوريد خدها الازهر ، وعلى مباسمها تقرأ الحلاوة اية الكوثر ، وهي تهز رجلها هزًّا لطيفا اشارة لاستيعاب الخطاب وكانت تنظر الى وجه وزير محبة السلام بعينين تفيضان جمالا وكمالا على طلعة تنفث في العقول سحراً وتدير على القلوب خمراً ، فهي ترمي فؤاد فينوس (الهة العشق) بنبال الفتور ، وتأخذ قلب باكوس (اله السكر) بانشوة الخمور ، مع انها تخلق في مينارفا (الهة الحكمة) مهابة واحتراماً ، وتجري في روح المريخ (اله الحرب) بردا وسلاماً .

فما اتم الوزير كلامه ألا ورأيت زنجيين مهرولين من بعد الى ساحة هذا المسرح ولم تزل بطون الادغال تبتلعهما تارة وتلفظهما اخرى حتى ادركا اخيراً هذا الموقف وسجدا على الفور تجاه المشهد الملوكي مكشوفي الرأس مطرقي الاعين قد عبثت بانفاسهما غصص الرعشة والهلع ، وغب سجودهما ابرز احدهما من جيبه درجاً مطوياً ورفعه منشوراً لدى العظمة الملوكية وهو مطأمن الظهر منحل العزائم .

فالقت عليهما الملكة لمحة عين ثمَّ أمرت قائد الجيش بحركة الايماء ان يتناول الدرج و يتلوه علناً ، فالتفت القائد واشار الى حامل هذا الدرج بالدنو ، فدنا والقى بين يديه الكتاب ونكص ، فتلاه ذاك بصوت عال واذا مكتوب فيه ما نصه :

الى العظمة الملوكية

ان تقادير النحس والتعاسة قد حركتنا نحن معشر الاشقياء الى رفع الاسلحة ازاء وجه عظمتكم الملوكية بحيث لم نكترث بيدكم القوية وساعدكم الرفيع الامر الذي جلب علينا من لدن ملوكانيتكم غضباً لا يخفى وسخطاً لا يطفى ، فسقتم علينا جيوشكم الزاخرة وصيرتمونا كالهباء الذي تذريه الريح عن وجه الارض ، فلبسنا اللعنة كالثوب لانه لم نعلم لكثرة جهالتنا ان كل سلطة هي من الله ، ولذلك قد منعنا رب الحكمة

كل حركة وابقانا لديكم كعمود لوط ، حاملين على عاتقنا رجسة الخراب ، مسوديّ الوجه مضطربين بين يدي الغضب الآتي .

فاذا كان لم يزل يُوجد في قلبكم نحونا ذرة رحمة اقبلوا من عبيدكم اعلان الندم على ما فات ، واطلقونا من سجن الحماقة واسر الجهالة ، ونحن نعدكم وعداً ثابتاً اننا نجري جميع اوامركم وقوانينكم في كافة ولايتنا الصغيرة ، ولا نعود نضع ادنى خلل في نظام مملكتكم ذات الاتساع والعمار ، عالمين ان سيف السلطان طويل ، وان الذي يعصى السلطان او الشريعة تكون نهايته الدمار والدثار ، وأنه لا يمكن قط لاي ملة كانت اوامة وُجدت قهر الصولجان الملوكي او مجاوزة قوانين السياسة ، وانه واجب على كل انسان ان يخضع خضوعا مطلقا لعظمة السلطان ، عالما ان الله قد جعله على الارض أعظم قهرمان ، وسلمه مقاليد الشريعة ذات الامان .

فحينما اتم القارئ تلاوة الدرج طرحه على الارض مرتعدا بثوران الحمية وصرخ يا للمكيدة !!! فتناوله وزير محبة السلام وتلاه بفم الضمير ثانية بينما كانت الملكة مشرابة والبهتة تعلو وجهها صارخة : يا للحيرة : وبعد صمت يسير يكفي لتكرار التلاوة السرية رفع الوزير عينيه بحياء الى حضرة الملكة واضعا الدرج الى جنبه برفق واخذ يستميل بلحظاته قلبها الى اجابة اولئك المسجونين ويحركها بظرافة تبسماته الى الشفقة عليهم .

فانعطفت هذه السيدة الى الجانب الملوكي ورمقته بعينين رطبهما الاشفاق وقالت له بتبسم يطفح بانوار الحنوّ :

— دعهم يحضرون الى المحكمة عسى يفلحون ،

— اخشى وقوع المكيدة ،

— انا اكفل ذلك والحكمة تعرف طريقها ،

— ليكن لك حسب قولك ،

فالتفتت الملكة الى الوزير وقالت له : قم فاذهب بذاتك واستحضر المسجونين الى هنا كي نحاكمهم ، فنهض المومي اليه للوقت وجاز مسرعا .

ثمَّ قالت المالكة لقائد الجيش: اكتب رقعة الى الفيلسوف واستعجله بالحضور الى هنا. ففعل فقالت له ارسلها مع هذين العبدين فدفع لهما الرقعة حالا بعد أن أطلعهما على محلاته في مدينة النور، فذهبا يذرعان الارض، والقائد راح يتخطى في ناحية، وأخذ المظهر الملوكي يضرب في أغوار التفكرات، وما عدت أرى سوى هيبة السكوت العميق ولا أسمع سوى هدير الماء المتدفق

الفصل الثاني

الرواميس

وبينما كنت أجول في مسارح الاوهام العقلية وأهيم في اودية الخيالات الفكرية. واذ لمحت شبحا يتقارب عن بعد وهو يخب في بطن الغاب غائصا في غمر الظلال المتكاثف. وما زال يعسف على قدم الاقدام حتى نفذ من تلك الغمرات المدلهمة وظهر في مسرح الاحلام ظهور القمر من كبد الغمام

وما برح يتردد قدوما ويتحذر هجوما حتى رأيته خرَّ لدى العرشين باسلوب ما به شين. واذا هو رجل احرز سمة الوقار وعلى وجهه تلوح حذاقة الافكار. فهو ذو جبهة تشير برحابتها الى تمام العلم والعمل ونظرات اشد نفوذاً من نبال بني ثُعل وكان لباسه جامعا بين المهابة والاحتشام جمع الحرف بين الصحة والاشمام. ذو قامة لا تغرب عن العامة ورشاقة تتوقد بها النّامة أما سنه فلم يتجاوز آحاد الخمسين على ما كان يلوح لي ويستبين.

فلما صادفته لحظات الجالسين على مقام السلطنة. بثّته اشارة التحية مظهرة دلائل الابتهاج بقدومه. ثمَّ أومأت اليه الملكة أن يجلس حذاءها فتقرَّب وجاس مستريحا على ركبتيه. فاوعزت اليه براحة الجلوس ففعل.

وبعد فترة من السكوت التفتت اليه هذه السيدة وقالت له:

— هل عرفت كيفية نهاية الحرب؟

— نعم قد بلغني أن النهاية كانت انتصاراً لكم والله يعطي النصر لمن يشاء

— ولكن بعد موقعتين بحكيان العويرض بما تكلفتاه من تعب شاق

— لا راحة الا بعد تعب ولا نعيم الا بعد شقاء

— وهل بلغك أنَّ ملك العبودية وأعوانه قد أسروا واطرحوا في السجن تحت سطوتنا بعد أن أدرنا عليهم رحي المنايا و أمطرنا على هامهم البلايا .

— لا لم يبلغني أمر الاسر . اجاب بدون كبيرا كتراث

— نعم هكذا تمَّ الامر . وقد انفذوا الينا عرض حال ينطوي على اقالة التمرد والعصيان والوعد بعدم الرجوع الى زرع الخلل في نظام مملكتنا نادمين على ما اجترموه ضدنا . وراجين منا أن نطلق سجنهم ونفك اسرهم

— لاشك أنه يجب اجابة استرحامهم . أجاب الفيلسوف رافعا كتفيه . ولا ينبغي معاملتهم بالقسوة حذراً من ملامة العموم .

— فقاطعه الملك بعد اصغاء وتفكر . قائلا : ان الامارات التي بها نهجوا سبل التوحش والعبودية في مملكة التمدن والحرية تستحق النهوض ضدهم بكل قسوة لانهم أخذوا يسلبون حرية الناس و يزرعون بينهم الخصومات والخرافات . فلو لم تستدركني هذه السيدة بمشورة حكيمة لكنت أنفذت أمراً بشنق ملكهم وسجن أعوانه وأنصاره مؤبداً

— هكذا تمَّ الامر أجابت الملكة . أما المشورة التي تنازل عظمة الملك بقبولها فهي أننا نستحضر اولئك الائمة ونضع لهم قوانين وشرائع جديدة يسلكون بموجبها ونرفقهم بنظار من طرفنا ونمزج عساكرهم بعساكرنا و بذلك نأمن غوائلهم ونستولي على ولاياتهم بالتدريج بدون اثارة الحروب وشنّ الغارات فنتخلص من فخاخ دولة العبودية . فاطرق الفيلسوف ساعة ثمَّ رفع عينيه الى السماء وأخذ يتأمل قليلا . ثمَّ ادار رأسه يمينا و يساراً وأحاط جميع الغابة بنظره وهو يهمهم بكلام مترادف غير مفهوم . ثمَّ اعاد الاطراق ثانية وأسدل على عينيه براقع الجمود صائراً لبواشق الافكار فريسة

فشرعت الملكة تتأمل في هذه الظواهر مندهشة كأنها ترى مشهداً عجيباً .

وأخذ الملك يفاوض العدل والحلم وما كان الا كلمح البصر حتى انبرى الفيلسوف من هواجسه وقال :

— لم أفهم معنى الخلاص من دولة العبودية وهل يمكن أن يوجد لاحد خلاص منها ؟

— كيف لا يمكن ذلك . اجابت الملكة ؟ وهل يخفى عليك فعل المدافع والبنادق ؟

— أنني لا أرى وسيلة يمكن بها الخلاص لاحد من نير العبودية . على أنني أرى جميع ما في الطبيعة مرتبط بسلسلة الاستعباد بعضها لبعض

— وكيف ذلك؟ أجاب الملك وهلا يوجد حرية في العالم ؟

— لا أيها الملك العظيم

— أفلا توجد طريقة بها يحصل الانسان على شبه الحرية لكي ينال لذة الحياة

— نعم يوجد

— اوضح لنا ذلك

فاطرق الفيلسوف برهة ثم أخذ يتكلم فقال :

— أننا اذا تتبعنا الانسان منذ ولادته الى نهاية حيوته . انما نرى حيوته تجري خاضعة الى مالا ينتهي من العبوديات وهكذا نرى أيضا جميع المخلوقات ، فالطفل المولود عند ما يسقط على الارض يصرخ و ينتحب علامة لاشعاره بوقوع سلطان المحيطات به عليه ولم يزل عبداً طبيعيا لامه طالما يغتذي من لبنها الى أن تضع له المر على الثدي اثارة لطرده من حلاوة الحيوة وا كراهه على الدخول في مضمار الحيوة المستقلة وحينئذ يميل بوجهه الى مواجهة عالم الغلبات فتدفعه شرائع الاستقلال الحيوي في عبودية الموجودات وتعصف به زوابع الاقدار في مفازة الطبيعة فيعود مدافعاً ومجاذباً جميع الكائنات أملاً بالخلاص من فواعلها وتأثيراتها الواقعة عليه فيخضع للحرارة ليستعين بها على الفرار من سلطة البرد . ويميل الى هذا الاخير ليدفع عنه غلبة سفير الاولى ، ثم يبسط يديه لدى مكارم المملكة الازلية علنا ليسترجع منها ما اقتنصته

من بنيته بالانحلال والتنفس خفية ويبتني من الجوامد بيوتاً لتحميه من حوادث الجو وهجير الشمس ، ويستنجد بالمعادن لوقاية ابنيته من غوائل الصواعق المنقضة ويستخدم أجنحة البخار ليطير بها الى كل فسحات الارض وهكذا لا تبرح طيور أفكاره تحوم على دوحة الطبيعة ، واقدام اماله تعدو في كل ميادين العالم حتى تنتصر أخيراً على جميع قواته كل تلك الاكوان وتزجه في أودية العدم حيثما تحيط به ظلمات الازل وتكتنفه غمرات السكوت بعد حيوة قد تقضت بالتعبد لكافة الحادثات وجرت تحت رق المصائب والاتعاب والامراض خاضعة لقوى مقتدر أو ضعيف مستتر حسبما تقتضي الغاية أو الضرورة ، فلا حرية اذن للانسان ، وهكذا تجرى عين هذا المجرى سائر الموجودات ، أما ترى كيف الحيوان القوي يستعبد الضعيف ، أما ترى كيف أن كل الحيوانات تسترق لخدمتها جميع جماهير الوجود النباتي أما ترى كيف القوات الجاذبة تجمع ما بين المتفرقات العنصرية وتخضعها لسلطان الاجتماع والتراكم تحت عبودية الفواعل الكيماوية واسر قوات التماسك بحيث لو امكن للعناصر الهيولية ان تأخذ حرية الانفراد لما امكن قيام النظام الطبيعي اصلاً ، اما ترى كيف السيارة تدخل في سلطة الثوابت ، قم بنا لنطير على اجنحة التصورات ونرفع ببخار الافكار الى سماء الحقيقة وهناك أريك كيف أنّ هذه الكرة الارضية ، تظهر لنا عن بعد سابحة في اعماق الفضاء وهي تدور منحنية على نفسها كشيخ احنت ظهره اثقال السنين ، وكيف ان هذا الجرم العظيم منقاد بسلاسل سرية الى الخضوع لنظام الفلك الشمسي بحيث لا يمكن له الخروج عن حدود دائرته المضبوطه باقطار من تشعشع جاذبية ذلك المركز الثابت ، وكيف ان جميع الاجسام المنتشرة على سطحه خاضعة لحكم تقلب الفصول والاوقات حسبما يقتضي حلوله في احدى جهات تلك الدائرة المنطقية وكيف ان كل تلك الاجسام نراها ثائرة على بعضها البعض لتدفع عبودية التغلبات حيثما تنشي معامع مهولة ، فهناك تسمع ضوضاء حروب الجو تضج ضد غلبة المؤثرات، وترعد في آذان الارض التى تراها تقذف السماء بلهيب غضبها ، وعجيج عالم

المتحركات يصدع رؤوس الجبال العالية اذ تشاهد كلا من انواعه يشن الغارة الشعواء على ضده حتى يهلك الجنس ويباد ، فتري اساحة تتلامع في الشمس وتقعقع في الهواء وجيوشاً تتضارب على صهوات الخيول تاركة سحب غبارها تغشي وجه السماء وايادي تتجالد وتتقارع . ومخالب تخلب وتجرح ، واظافر تنشب وتهشم ، وحوافر ترفس وتصدع ، واجنحة تخفق وتلطم ، وذنابات وافواها تلذع وتلسع ، وكذلك نرى مملكة الحيوة النباتية مشتغلة بدفاع غارات الطقوس بوسائط وطرق لا ينجلي غموضها ولا يحصى عددها وهي تضبح وتائن ليلا ونهاراً مما تفعله عليها لطمات الارياح الهائجة التي تخطف ورقها وتنثر ثمرها . ونرى ايضاً عالم السوائل يقاسي تبديد التبخير تحت احكام الحرارة فيهب الى العلا وينضم هناك الى بعضه متنوعاً . ثم يهبط غائراً في بطون الجوامد حيثما يشرع بمصادمتها فتقذفه الى حيث يذهب آناً مضطرباً خوفاً مما قد قاسى . فكيف لا يمكن والحالة هذه ان يقال لا حرية في الخليقة ولا خلاص من العبودية ، ومع ذلك فقد يمكن للانسان ان يحصل على شبه الحرية ويتمتع بلذة الحيرة على نوع ما ، اما حصوله على الحرية فلا يمكن الا اذا ادرك كون اعتبار سني وجوده مهما كانت عديدة بالنسبة الى ماسبقه من العدم وما سيرد عليه كاعتبار برق طفيف لمع في ليل دامس ، وان جميع مصايب الدنيا واكدارها تحيط بهذه الفترة الحقيرة من الحيوة التي يجب ان يستثنى منها اوقات نومه وطفوليته وشيخوخته الاوقات التي تعتبر عدماً ، وان جميع المحيطات به تجتهد بهدم بنيته لتسترد منه ما سرقه من موادها بالاغتصاب ، ولا تغفر السرقة الا بالرد الذى هو حكم المغتصب ،

فاذا عرف هذا جميعه يعود متحرراً من سلطان الوقائع ومعتوقا من عبودية الزمان ، فلا يلبث معرضا للاكدار والاحزان لعدم مبالاته بها ، ولا يوجد هائما بالمسرات والملذات لكونه لا يعتبرها بحيث يري الجميع بخاراً يتصاعد قليلا ثم يضمحل ومن لم يبالي بالالم لا يشعر بعضضه ، ومن لا يعبا باللذة لا يدرك بهجتها ،

اذا كان وقع السيف ليس يمضي فعندي سواءٌ غمدُهُ وغرارهُ
وان جمر الخطوب ليس يصيبني فلا خوفَ لي مهما يهب شرارهُ

انا لا ارى في الارض شيأ يروقني لذاكَ نور العمر عنديَ نارهُ
ايطربنى هـذا الزمان وكله عراكٌ على الدنيـا يثور غبارهُ

أما حصول الانسان على لذة الحيوة فلا يقوم الا اذا طرح ثقل العالم عن ظهره وارتضى بما قسم له من الله لقيام وجوده خالعاً كل امارة تجعله عبداً واسيراً لمن يعلوه او يتواطاه ، وذاك كالحسد والطمع والكبرياء والحقد وهلم جرا ، موجهاً اقدامه على هذه الارض حسبما يهديه الصواب والاختبار، منعزلاً عن الناس ما امكن ، واضعاً لافكاره ناموساً يحفظها في قيود الاستقامة والرشد ، لاجماً لسانه عن كثرة الكلام لئلا يحسب تكلمه هذياناً ، راكضاً وراء الحكمة والعلم ، معرضاً عما يؤول الي خراب بصره و بصيرته كالتهافت على اللذات الجسدية والتمرغ باوحال النفاهة والفساد ناظراً في كل لحظة الى الموت الذى يتهدده علي ممر الثواني ، عالماً ان كل نفخة من نفسه مأخوذةٌ من روحه ، عارفاً ان القوة الضابطة لاقدامه على سطح الارض ستكون يوماً ما سبباً لابتلاعه الى عمقها ،

فبهذا جميعه قد يحصل الانسان على لذة قصوى في مسير حيوته اذ يشاهد ذاته محلولاً من جميع وثاقات الاكدار والالام الادبية والطبيعة ومنقطعا عن كل عالم العبوديات اللازمة والمتعدية ،

واذا تحركت به الاميال الى مخالطة اشباهه في النوعية ، فعليه باختيار من حسن وطاب واجتناب من قبح وخبث ، على انه بذاك تفسد الفطرة السليمة التى هي أصلية في الانسان ، وبهذا تصلح وتجود وتسمو الى أوج الكمال

واذا اتفق وجوده في مركز بعيد عن دائرة المخالطة الحسنة ، فعليه بالانفراد الى ذاته ومخالطة العوالم المحيطة بحواسه حيثما ينال لذاتٍ لامزيد عليهـا ويغتني بها عما سواها

فان الانسان المثقف لا يدرك لذة اعظم اعتباراً من تلك الملذات التي يدركها عند ما ينشر شراع التعقل لسفينة افكاره ويطلقها في بحور هذه الموجودات لدى مهب ارياح الحوادث ،

هناك نرى غزالة العالم تبرز يومئذ من كناس المشارق الذهبية ناشرة أنوار بهجتها على وجه السماء حيثما تعود كافة الخليقة مستبشرة بلقاءها وتخطراتها ، فالجبال تنتطق بمناطق لجينية وترفع قممها الغاطسة في غمرات الظلام فاتحة باعاتها لاعتناق طفحات الضوء والمياه تتموج بلمعان الاشعة المنبعثه من لدن ابى الانوار كأنها متسربلة بدروع ناريه والاشجار ترجرج رؤوسها لدى بشائر النسيم كذى طرب متوجة باكاليلها العسجدية ذات المنظر البديع ، والازهار تبتسم ازاء وجه الطبيعه نافحة بأطيابها التي تذهب مبشرة سائر الخلائق بثوران حركة الحيوة والاطيار تغرد وتصيح مهللة مكبرة على ادواحها العديدة ومحطاتها المتفرقة وسائر الحيونات تأخذ بالحركة والانتعاش

هناك نشاهد هذه الغزالة مائلة على خط الزوال بوجه يقدح شرراً حتى اذا مابلغت الطفل وأوشكت الفراق صبغت بدموعها الدموية وجنات المغرب وغارت في كهف الافق . سادلة على المسكونة ستار الظلام تاركة العالم في حالة سكوت الموت متهضة الخمود العميق في جميع البنية الازلية ، سالبة من جميع المواد المظلمة ما أفاضته عليها من الصور الجلية حيثما تتبلبل الارض مع السماء وتضيع الجبال في الاودية ولا يعود يقال سوى ماهذا السكوت العظيم

هناك تحوم عقولنا على كل حادثة طبيعية وظاهرة أدبية فترتقب طيور السماء منسرة باجتماعاتها وانفرادتها واختلاف اصواتها وحركاتها ، وتتبع مسير وحوش الغاب متأملة بفرائسها المرتعدة وحروبها المتقدة ، وتهب مع الرياح الاربع الى حيث لايعرف الى أين ذهابها ولا من أين ايابها ، وتقف حائرة عند نهوض الزوابع وانتشاب الانواء وتراكض البروق وانقضاض الصواعق وهدير الرعود حيثما لايدرك الباحث من الاسباب سوى ما يؤذن به ولا يعلم من الحقائق سوى مايراه ماديا فيغرق في بحور الاندهاش والذهول ملتطماً بامواج الهذيان والبحران ماخوذاً بخمرة الهواجس والاوهام الى أن يصبح كريشة تتجاذبها رياح الاحكام المضطربة ويأخذ بتصوير الغيوم الى أشكال وصور وتتجدد على ممر الدقائق والاوقات خالعة كل هيئة حقيقية ،

هناك نهجس بهذه المواد الكونية من أسمى جرم الى أدنى ذرة باحثين عن أصولها وفروعها وعلاقاتها ونسبة بعضها الى بعض وغاياتها وأحكامها ناظرين في كل جنس من اجناسها حركة حيوية متوزعة على سائر أنواعها تحت ناموس المناسبة، فالبعض يجمد متصلباً ، والبعض يسيل مائعاً ، والبعض ينتشر طائراً ، وهذا ينمو بلا حيوة ولا حركة ، وذاك يفتخر بأسلوب نموه وحيوته وحركته المطلقة والارادية .

هناك نتصفح هذه الاشياء وتلك الحوادث فنقول ، ان كلا منها له حيوة خصوصية تقوم بتدبير وظائفه وحركاته الذاتية ، وحيوة عمومية تشركه مع بقية الاشياء وتربطه بعللها ثمَّ لا نرضى ، فنقول أنَّ الكهرباء هي السبب الوحيد لجمع وتحريك كل العناصر بما انها روح العالم ، ثمَّ لا نرضى ، فنقول ان سيال الحرارة هو عنصر جميع الحركات والمتحركات وعليه مدار سببية الحيوة والنعيم ، ثمَّ لا نرضى ، فنقول أن النور ذاته هو القائم باحياء وتحريك كل مادة مؤلفة أو منفردة ، ثمَّ لا نرضى ، فنقول ان شريعة التثاقل التي تثبت أقدار الاكوان في مراكزها وأوضاعها وترشد جميع خطواتها الى سواء السبيل هي ذاتها سبب القيام العام ومبدأ الحركة ، ثمَّ لا نرضى ، فنقول أن الفضاء الغير متناهي هو ينبوع البداية والنهاية ومنه أخذت كل الاصول العالمية واليه سترجع ، ثمَّ لا نرضى ، فنقول انه يوجد رب منزه عن ادراك الافهام مهيمن دائماً بتدبير عموم تلك المخلوقات ومنه الحيوة كانت وكل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كُوّن ، وهو محرك الحركات واصل الكائنات واليه مصير الاشياء جميعها لا اله الا هو ولا معبود سواه . فحالاً نرضى بهذا المقال ونسحب جميع أفكارنا من مواقع الاوهام والوساوس الغريبة معانقين عروسة الحقائق وبكر كلّ برية متمتعين بلذة الحيوة وحرية المعيشة

وبينما كان الفيلسوف مواصلا خطابه كان الملك والملكة شاخصين اليه بأعين يخامرها الركن والاصغاء مستوعبين معانيه بكل اتضاع ودعة . وعقب نهاية مقالته جعلت الملكة تقول له :

— أننا قد عرفنا عدم امكان وجود حرية ليس للانسان فقط بل ولسائر

الانواع أيضاً ، وان جميع الاشياء بما أنها مرتبطة بخدمة بعضها البعض فهي مقيدة أيضاً بعبودية بعضها للبعض ، ولكن عند ماتكون هذه العبودية غريبة عن الفائدة أو مضرة بمصلحة العموم ، فالاجتهاد بأبطالها ضرب من اللزوم وقانون صوابي ، وبناءً على ذلك عند مانظرنا دولة الاستعباد تتداخل بين شعوبنا بطرق مختلفة حيثما لا ينجم عن هذا التداخل سوى الاضرار بهم وفساد طبائعهم السليمة نهضنا حالا ضدها وسطونا عليها سطوة اسكندر على داريوس وسجناها كما علمت .

أما حصول الشخص على لذة الحيوة معتوقة من كل حكم وصافية من كل مكدر . فهو امر لا يمكن أصلاً ولو تطبع على تتبع تلك النواميس التي ذكرتها والتي يصعب تنفيذها بمقدار سهولتها على التصور حسب كل الاعمال الفلسفية . لانّ ماينباط بالتطبع لا يقوم بالطبع وما يوجد هكذا يكون غير لذيذ لمجرد الطبيعة وغريباً عن السهولة ، واذا استطاع الانسان السلوك كما أشرت فلا يكون ذلك الا لمن وسمته العناية بسمة الانفراد . وهذا شاذ وليس حكم الشواذ الا الحفظ وعدم القياس عليه

وعلى كل حال أن الانسان اذا كان متعبداً لاحكام دولة التمدن والصلاح يكون داخلا في حقيقة الحرية التي تطلبها الواجبات الانسانية أدبياً . على انه اذا كان التعبد لازماً فتلك الحرية ملزومة لان اعتناق الانسان واجباته لا يُدعى عبودية ولكن اذا كان الشخص معتوقا من رقّ تلك الدولة فهو بالضرورة داخل في عبودية ماضدها تبعاً لمقتضى الحال

وبما أن الدخول في أحكام دولة الخشونة والبربرية يفسد احوال البشر وينثر نظام جمعهم نازعاً عنهم كل الصفات الحميدة والسلوك السليم الامر الذي لا يوجد أضرُّ وأشرُّ منه لمملكة التمدن والصلاح وجب علينا من ثمّ دفعاً لوقوع البلبال والوبال بين رعايانا أن ننهض ضد تلك الدولة الآبقة التي اذا لم ندثر آثارها لم تقم حرية الانسان المطلوبة أصلاً ، تلك الحرية التي لا يمكن انكارها أدبياً مهما اطلت في ايراد الهواجس والاوهام الفلسفية الفاقدة كل مكان سوى العقل الذي قد يخطر فيه ما لا حقيقة له في الظاهر

— فاردف الفيلسوف كلامه قائلاً : أنا لم أمنع امكان الحرية أدبياً بل طبيعياً ولا شك اذا اطلقنا انظارنا الى عالم الاداب وتبصرنا بشرائع الحكمة انما نرى بكل وضوح قوماً أحراراً وأخرين عبيداً حسبما تقتضي احوالهم وكيفياتهم . وعلى كل حال أنّ الاجتهاد في عتق العبد وهدم مباني العبودية هو أمر ضروري وواجب

فطرح الملك انظاره على الفيلسوف وقال :

— اذن فمشروعنا محاربة مملكة العبودية وانقاذ شعوبنا من قيودها لا يستحق الملام .

— كلا . بل هو مستحسن وواجب يا أيها الملك المعظم لأن الاستعباد مكروه عقلا وطبعاً وقد نهض العالم بأسره ضدّ هذه العادة المستهجنة ومايحاكيها . فحاربوا من ظلم واعتدى . واعدّوا له السلاسل والاغلال .

الفصل الثالث

مملكة الروح

واذ كان التمدن والحكمة يتناقشان في الفلسفة رأيت جمهوراً أتياً من شاسع الارض وما زال يقدم متقربا تحت كراديس الاغصان حتى بزغ من أفق الغاب وانتصب أمام المشهد المهاب . وبينما كان يتراءى لي أنّ الشمس مالت الى الطفل وعاد الغروب يطوي ذلك الشراع الذهبي الذي نشرته أيدي الاصيل على هام الشجر . لم أعد أرى حينئذٍ سوى أشباح ضئيلة تتحرك في الفسحة وما عاد يمكن تمييزها لاندفاع تيار الظلام عليها بحيث جميع الغابة أوشكت أن تنمحي تحت أقدام الظلام وتغور في غمر الظلمات المتراكمة

وما كان الا فترة قصيرة حتى رأيت ناراً لمعت عن بعد فجأة وصارت تتقرب تاركة خلفها مصابيح مضيئة . ولم تزل تتكاثر هذه النبارس ممتدة الينا من وراء العرشين حتى ملأت ميدان النظر . ولما خرقت الاضواء جلباب الظلام عدت أرى رجالاً كثيرين عليهم أبهة العسكر بارزين من كمينٍ وهم يعملون على ايقاد ما لا

يُحصى من تلك القناديل التي كانت معلقة على الاغصان . ومابرحوا يتممون مسعاهم حتى ملأوا الغابة جميعها أنواراً . فأخذت الغابة تتموج بالاضواء الساطعة وصارت شعلة واحدة حتى أظهرت مشهداً عجيباً لم أشهد أبهج ولا أسنى منه . فصار يظهر لي كأن الارض أخذت تقذف السماء ليلا بما طرحت عليها من شهب الرمضاء نهاراً أو كأن جميع عرائس الغابة جعلت ترشق علينا بروق نظراتها . وعدت حينئذٍ أخال نفسي كأنني قائم في وسط فلك يتشعشع بالنجوم والكواكب التي لا عدد لها . ومازلت أتبع بأنظاري هؤلاء الرجال الذين زرعتهم الهمم في أربعة أقطار الغابة لكي يذيعوا آثارهم ويبثوا أنوارهم اللامعة حتى رأيتهم يرجعون منضمين أجواقا أجواقا ويعسكرون وراء المحفل الملوكي مثنى وثلاث ورباع حينما كان يحثهم الصوت العالي قائلا أعدوا الصفوف فاني أراكم خلف ظهري .

وحينما أمعنت النظر في هذه الصفوف الملوكية رأيت على صدر كل منهم لوحاً مكتوباً فيه : « هذا جندي التمدن فليعش منصوراً » وما لبثت ان أخذت بمجامع حواسي جلالة هذا المشهد اللامع بالانوار الساطع بالبهجة والازهار ، حينما كان الملك نازلاً في عرشه نزول الشمس في الحمل مغموراً في أشعة الهيبة والوقار . والملكة بازغة من سماء مجدها بزوغ الزهرة من أفق الصباح مكتسية بحلل الكمال وحلي الجمال ، والفيلسوف جالساً قبالتهما جلوس الدعامة على أساسها موثوق الاعين بسلاسل الافكار والهواجس ، وقائد جيش التمدن متخطراً في محله تخطر الاسد في عرينه ، وأجواق الجنود مصطفة حول المسرح كالزرازير على الاشجار بينما كان الليل ناشراً شراع الهدوّ على جميع حركات الطبيعة وضاغطاً بكلّ ثقله على الهواء كيلا يخترقه صوت آخر سوى تكتكة المصابيح أو تغريد البلابل .

ولما أخذ الصوت قراره طفق الملك يناجي الفيلسوف قائلا :

— انه يُوجد مملكة كبيرة جداً وقوية الى الغاية يقال لها مملكة الروح وهي ليست بعيدة عن تخومنا فهل تعرفها ؟

— نعم توجد مملكة كهذه وأنا أعرفها حق المعرفة فما سبب سؤال العظمة عنها ؟

— لأنني أريد شن الغارة عليها أيضاً .

— وما الداعي الى ذلك ؟

— هو سماعي عنها انها تتصرف كثيراً بما يضاد سياستنا) وان ملكها الجالس على العرش القديم طالما يجتهد بخراب شرائعنا واضمحلال كل مملكة لا تخضع لنواميسه .

— فهز الفيلسوف رأسه وأجاب قائلاً : لا تصغ الى كل محدث أيها الملك المعظم لأن أكثر خراب العالم ينشأ عن أحاديث ذوي الغرض . وطالما يتكلم الناس بلغة غير مفهومة ولا معقولة، وحقيقة الامر هي خلاف ما بلغ أذنيك لأن العالم لم يدخل في دائرة التهذيب ولم تقم مملكتكم هذه الا منذ قيام تلك المملكة القديمة . واذا كان البعض من رعايا كم ينسبون اليها بعض أراجيف فهذا ناجم عن المصلحة الخصوصية التي من شأنها ان تهدم بناء المصالح العامة .

— فرشق الملك محدثه بنظره وقال: ان كثيرين من ذوي الصدق والثقة قد أخبروني عن جملة أمور خشنة تواظب عليها مملكة الروح. فهي على ما يقولون انها أولاً لا تفتر عن بث التصورات الباطلة في عقول الناس لكي تنهض بذلك تصديقات سخيفة تؤسس عليها أقيسة دعواها بالسياسة المطلقة . وعلى هذا الاساس قد شيدت قوس نصرها في ساحة العالم ونشرت عليه راية سلطانها ، ثانياً لم يكفها التسلط المطلق على الانفس والاجساد حتى جعلت تمد سلاسل سطوتها الى أعماق القلوب لكي تجتذب السرائر والضمائر الى ميدان أحكامها وعبوديتها. ثالثاً لا يكل أعوانها وأنصارها عن الجولان في كافة المسكونة لأجل زرع الشقاق والفتن حتى أن أكثر الحروب التي جرت في الدنيا كانت مسببة عن افعالهم على ما قيل . فهل يسوغ لنا الصمت عن هذه المملكة اذا كان هذا شأنها ؟

وبعد برهة من السكوت وثب الفيلسوف على قدميه وأحني رأسه أمام الملك

وقال : اسمح لي أيها الملك أن أجاوب عظمتك بالتفصيل عما شرّفت به اذني .

ـ قل ما تشاء

ـ أولا ان هذه المملكة ما علّمت قط وان تُعلّم الا ما يقود الناس الى نوال السعادة الحقيقية كما يظهر لنا ذلك بتدقيق الاستقصاء والفحص بدون التفات الى ما يهذر به أهل الغرض الاعمى ، وجميع تعاليمها مأخوذة من الكتاب المعصوم الذي لا ينكره الا أهل الضلال المبين ، ولو لم يرتفع قوس نصرها في ساحة العالم وتخفق رايتها على كافة الاقطار لكان النوع البشري وقع في هاوية الفساد وعمّ الخراب جميعه ولا سيما في هذه الاجيال الاخيرة حيثما انتبهت الطباع الخبيثة من غفلات السذاجة لدى ارتفاع نهار التمدن الذي ما عاد يوجد عنده لجم لردّ جماح تلك الطباع سوى ما تعلّمه مملكة الروح . فاذا رغبت عظمتكم في خرابها تكون هذه الرغبة واقعة على نفس مملكتكم أيضاً . فلا تنقسموا على ذواتكم . ثانياً انها اذا كانت تمد سلاسل سطوتها الى أعماق القلوب فلا يكون ذلك الا لايقاع التهديد والخوف على السرائر والضمائر الشريرة لا للاستيلاء عليها ، فلو لم تكشف هذه المملكة حجاب غفلات البشر عن المستقبل وتظهر لهم ما يكمن فيه من المخاوف المستعدة لابتلاعهم ، فمن كان يمكنه ردع الغني عن الفقير ؟ومن كان يستطيع رد جماح القويّ عن الضعيف؟ومن كان يحسن تقييد رجل السارق ويد القاتل ؟ومن كان يقدر على قمع ثوران الزاني؟ومن كان يمكنه قطع لسان شاهد الزور ؟ و بالاجمال فمن كان يمسك العالم البشري عن تمزيق بعضه البعض و يحفظ نظامه من الانتثار ؟ ثالثاً ان الانسان لانطباعه على السوء ينسب جميع المعاصي والقبائح لمن ينهي عنها و يوبخ مرتكبيها. و بناءً على ذلك قد توهم البعض من الاشرار كون جولان خدام مملكة الروح في أقطار المسكونة هو لاجل غرس الخصومات والقلاقل بين الناس على أنّ الامر بالعكس أي انهم يهتمون دائماً بنشر الاتفاق والسكينة في العالم ولو اضطرتهم الحال أحياناً الى أن لا يلقوا على الارض سلاماً بل حرباً .

فاذن ليس يجب فقط أن يُغضّ الطرف عن هذه المملكة . بل ينبغي أيضاً أن

تكون مملكتكم موجهة كل قوتها الى مساعدة نموّها وانتشارها . على انه اذا كانت دولتكم قائمة بالابدان فتلك ثابتة بالارواح . ومن المستحيل قيام البدن بدون الروح ومن الجهالة تغافل ذاك عن هذه

واذا خامر أفكاركم الميل الى محاربتها فلا يخطر لكم امكان الانتصار عليها. بل يجب ان تعلموا انكم سترجعون القهقرى ناكصين على أعقاب الندم لان يد القدرة ممتدة دائماً الى مساعدتها واغاثتها حتى لا يمكن لنفس أبواب صقر ان تقوى عليها . وطالما اجتهدت الملوك قبلكم في اسقاطها وافنائها ولم ينجح لهم اجتهاد، و بمقدار ما كانت الاضطهادات ثائرة عليها كانت هي تزداد قوة وامتداداً الى أن استغرقت في حضنها العالم وأخضعت كل ملوك الارض تحت موطأي قدميها ، وما ذاك الا لكون العناية العلوية قد سلمتها زمام الارواح والعقول ورافقتها في كل المسالك ، وهكذا فهي لن تزال تنمو وتكثر وتشحن الارض الى أن تتم المشيئة .

فبعد ان استوفى الملك كلام الفيلسوف ووجده في غاية الصواب أيقن ببطلان فكره وخطأ اعتماده وعلم ان ما كان يبلغه البعض من أهالي مملكته ضد مملكة الروح هو ناشيء عن روح التغرض والتعرض. وهكذا عزم على تقديم الاعانة والاغاثة الى مملكة الروح بدل المضاربة والمحاربة. و بعد فترة من الصمت التفت الى ملكة الحكمة وقال :

— ان جميع كلام هذا الرجل صواب وليس فيه أدنى ارتياب وكلما كنا نسمعه كان باطلاً لا حقيقة له ، واذا افترضنا محال صحته وأشهرنا الحرب على مملكة الروح فلا نرجع الاخائبين وربما نقع في خطر اضمحلال كل مملكتنا وسياستنا لان ما يساعده الروح لا يغلبه الجسد

— فأجابت الملكة باتضاع : لاشكّ فيما تكلم به الفيلسوف ولا ريب ان الاعتماد السابق كان باطلاً ، لان السياسة العلوية منتصرة دائماً على السفلية ، وما يكون هابطاً من الأعالي يسطو مطلقاً على ما ينهض من الاسافل ، وما تفعله الصدف لا يغلب مفاعيل القصد

— لعلَّ سياستنا ودولتنا وجدتا على سبيل الصدفة والاتفاق

ـ اذا تتبعنا شجرة امتداد السياسة والتملك في العالم من حيث الاصل انما نراها باسقة من جرثومة المصادفات والتقادير قال هذا والتفت الى الفيلسوف وقال له ماذا تقول أنت ؟

— فأطرق الفيلسوف قليلا ثمّ أجاب . لا شكّ بما قالته حضرة الحكمة

— فصّل لنا ذلك

— ان تفصيل هذا الامر يعسر جداً ولا يوجد نور واضح يُستهدى به الى حيث الحقيقة . فقط يمكنني ان أورد على ذلك ما أتناوله من الاستقراء والاستنتاج التاريخي

— لا بأس خذ راحة الجلوس وقل ما يخطر لك

فامتثل الفيلسوف الامر وجلس و بعد اطراقٍ قليل رفع رأسه وجعل يقول :

الفصل الرابع

السياسة والمملكة

— كما ان نظام هذه الكرة الارضية لا يمكن قيامه بمجرد حركتها اليومية على نفسها فقط بل يحتاج الى الحركة الشمسية حول فلكها ايضاً . فهكذا الانسان بما انه محمول على ظهر تلك الكرة وآخذ جميع مواده ومقوّماته من حضنها فهو تابع في جميع أطواره لاحوالها . فلا يمكنه القيام بمجرد اقتصاره على ذاته فقط وذلك لعدم مقدرته على حفظ نظام حيوته الشخصية . بل يحتاز الى الدوران حول مركز مجموعه ايضاً . وكما ان القوة الجاذبة التى تتبادلها جميع الاجرام السماوية لا تسمح بوقوع خلل في نظام الفلك العام هكذا يحتاج ذلك المجموع الانساني الى قوة تحفظه من الوقوع في الخلل والتبديد واذا أخذنا نفتش عن مثل هذه القوة فلا نراها الاّ في السياسة والشريعة . على انه بذلك يُوجد الانسان محافظاً على القيام بشمل جمعيته

أما ينبوع ظهور السياسة والسيادة والشرائع فهو جارٍ من تغلب الناس على بعضهم البعض منذ القديم الامر الذي انتج التملك والممتلكات على وجه الارض

فلا سبيل لمن يرغب في الاطلاع على حقائق الحوادث البشرية وطرائق حدوثها الا في اطلاق طيور التبصرات الدقيقة حتى تحوم باسطة أجنحة البحث والاستقصاء على شواجن التاريخ العام حيثما يشتبك شجر المواقع في منحدرات الاجيال الغابرة وتهوي غدران الوقائع من شواهق القدمية العالية .

فلا ريب انه اذا تطلبنا معرفة أصل انتماء وانقياد العالم البشري الى بعضه البعض وكيفية انتشار السيادة والشريعة فيه لدعا الامر الى التوغل في أودية التواريخ الفسيحة . وهناك تبرز لدينا عروسة غابة الحق من خباء الازمنة السالفة مقدمة لنا بين أناملها زهرة المراد . وهكذا نعلم حينئذٍ ان الانسان لم يسد في اول امره الا على عائلته وتوابعها فقط ثم آلت به حركات الظروف الى أن يسود ويسطو على قبيلةٍ ثمّ أفضت به تلك السيادة والسطوة الى التسلط على شعوب مختلفة وقبائل متنوعة حيثما نُودي به « يعيش الملك » .

فهلمَّ بنا لنهبط باقدام الاستقراء في أعماق القدمية الغامضة حيثما قد ابتدأت تلك الحركات وأخذت في الصعود الى قمة التمام الاقصى حتى اذا ما بلغنا سدرة التتبع مخترقين فلوات الادهار المتراكمة نجد أنفسنا منتصبين على عرفات البداية اذ نشاهد الانسان القديم يهرع الينا شاهراً حسام السيادة وهو يقول :

انه لما كان النوع البشري تائهاً في البراري وثقوب الارض لا يجد له مقراً في بطون الاودية التي كانت تهدده بانقضاض قمم الجبال الشامخة عليه ، ولا راحة له في فسحات القفر الذي كان يقذفه بثوران العواصف القاصفة ويلدعه بلهيب الهجير المستعر بين أثافي الجنادل والآكام . ولا مفر أمامه من زوابع الجو التي كانت ترشقه بمعجزاتها اذ ترسل بروقها لدى أعينه فتخطفها دهشة ، وتطلق صواعقها في آذانه فيرتعد جزعاً وتسكب أنواءها على هامته فيخرُّ ساجداً لديها طالباً رحمةً من آلهٍ يستحق العبادة ، كانت الارض وقتئذٍ غير محروثة ولا مزروعة وعديمة كل ثمرة ، ومع ذلك فقد كانت تزهو ببساطها السندسي الذي بسطته عليها يد الطبيعة تحت مضارب السحاب منسوجاً من كل شجر عظيم ونبات وسيم

فبينما كان احد أفراد هذا النوع العظيم مضجعاً على كثيب مرتفع في فلاة قفرة الاديم تحت سماء وضيئة الاثير رائقة النسيم محفوفاً بنسائه وبنيه . واذا بنسمة هبت عليه عند انتصاب عمود الصباح. منطوية على نفحات زهور متنوعة الاطياب حاملة صرخات المواشي التي كانت تسبح رب الفلق . فأرشدت لحظاته الزائغة الى أفق شاسع يترعرع بجلباب خضل الاخضرار و يترقرق تحت مساحب ذيول الغمام ومساقط أنداء الفجر. فعندما بدا لديه ذلك المشهد الزاهر وثب على قدميه للحال وصاح بلفيف عائلته المقرون وهو باسط يد الايماء قائلاً أما تنظرون الى ذلك الافق البعيد الذي يظهر لنا من خلال البزوغ كم هو بهج المنظر وحسن المظهر ؟ قوموا بنا لنذهب اليه ونتجسسه عله يكون صالحاً لاقامتنا فنخلص من هذه الارض الممحلة وتعب تلك الحيوة التائهة ونتمتع برغيد العيش. فما أتمّ كلامه الا ورأى أقدام جميع تبعته تهرول أمامه الى المحل الذي اشار اليه

ولم يزل هذا المهاجر يطوي أديم الثرى حادياً رحل رفاقه آخذاً هدير الحيوانات دليلاً الى حيث المناخ، حتى انتهى به المسير أخيراً الى بقعة رحبة الارجاء ، فوقف للحين واستوقف وأطلق نظرات التأمل ليرى جليـّاً ما كان يلحظه عن بعد خفيـّاً واذا هو منتصب في غوط قد كسته العناية بوشاح الجمال العجيب ، وكالته الطبيعة بأنواء الفصل الرطيب ، فهناك كانت الشمس تسبل أشعة ضحاها على طلعة ذلك الجنان الازهر فيزدهي بألوان أجنحة الطاووس ، هناك كانت الانداء تتراقص على ثغور الزهر العطر فتمثل تراقص الحبب في أفواه الكؤوس ، هناك كان الجو الصافي يتعطر بأنفاس السحر فتهب نسماته ناشرة على الدنيا أطياب الرياحين ، هناك كانت عرائس الربيع ينثرن من رؤوسهن لآلي النور على حدائق الرياض و يرسلن نظراتهنّ الصاحية الى آفاق الارجاء الغرّاء ، هناك كانت رؤوس أشجار الخمائل تُحرق بنيران أنوار المشرق وأقدامها الثابتة تغرق في مسيل الماء المتدفق ، وكانت أغصانها تترنح تحت عقود الزهور لدي خطوات الرياح ، وصفحات أوراقها تتلألأ بطفحات النور تلألؤ الاسنة والصفاح . هناك كانت الأطيار تصدح باختلاف الالحان . هناك

كانت المواشي تسرح متنوعة الابدان ، فلما شاهد هذا الانسان سمو تلك البقعة الزاهرة وكيف ان الطبيعة قد توجتها بكل اكاليل الجمال، وسكبت عليها مياه البهجة والازدهار ، التفت الى جمهور ذريته وقال : هوذا مدير العالم ومدبره قد أرشدنا الى مقر الراحة في مكان خضرة حيث لا بكاء ولا تنهد ، فهلموا نمكث ههنا تحت هذه الافياء الممتدة بين الزهور والينابيع ونستريح مما قاسيناه من النصب والوصب في تلك البرية الجدباء . فأحنى كل منهم رأسه امتثالا وصاروا جميعاً تحت ايعاز اشاراته الى حيث المحط . فكان حلولهم تحت ظلال دوحة لا تفلح بها لفحة الرمضاء ولا تخترقها اشعة البيضاء . ولما استروح الكل بريح الارتياح وطفحت على شفاههم تبسمات الافراح جعلوا يتبادلون أحاديث البارحة ويتذكرون كل غادية ورائحة . أما ربهم فقد كان شاخصاً في الافق حيثما كانت تتراقص بنات الصباح ذوات الاكاليل الذهبية أمام ملكة المشرق الراكبة على عجلة نارية ومندهشاً بما كانت الانوار ترسمه على وجه الطبيعة ذات الحلل السندسية . وكأن لسان حاله يقول :

هوذا الصباح بساطع الانوار	لا لا وفتّح مغمض الابصار
والشمس قد سطعت ورايتها على	قمم الجبال امام جيش نهار
وعلى عمود الصبح قد شاد الضحى	برج النهار مسلحاً بالنار
والشرق أوتر قوس نورٍ وانثنى	يرمي على الدنيا سهام شرار
وغدا يزجّ على الرياض أشعةً	كالنار تحرق أروس الاشجار
والفجر مدّ على السما بحر السنا	فهوت دراري الأفق في التيار
والليل مزّق ثوبه حزناً على	فقد النجوم وغار في الاغوار
ما زال مدّ النور يدفع في العلا	جزر الظلام كعاصف لغبار
حتى امتلا جوف الفضاء من الضيا	وزهت بذلك كافة الاقطار
والنهر أصبح بالسنا متموّجا	يجري يردّ الضوء للانظار
فترنم القمريُّ فوق غصونه	طرباً وفاحت نسمة الاسحار
والنسر هبّ الى العلاء كأنه	يبغي المسير مع السحاب الجاري

ومن الغمام الشمس حين بدت حكت　　وجه الحبيبة لاح تحت خمار

واذ أفاق من غفلات هواجسه نظر الى أولاده ونسائه فرآهم جالسين حوله كغروس الزيتون وهم يتعاطون كؤوس الحديث فأخذ يخاطبهم قائلاً : ها ان معارض الصدف قد دفعتنا الى هذا المكان الفاخر ، فلنلبث به ولا نحد عنه ، وعلى ما أرى انه لا يعوزنا شيء هاهنا مما تحتاجه حياتنا ، فها الاشجار تطرح علينا أفياءها وتنثر ثمارها . والينابيع تدفق لنا مياهها ، والمواشي تسمح لنا بالبانها ولحومها ، واذا أرعد البرد فرائصنا وغرقتنا الانواء نصنع من صوف هذه الحيوانات ثياباً تدفئنا ومضارب تقينا . فاشربوا هنيئاً وكلوا مريئاً في جنات تجري من تحتها الانهار حيث لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

فلئن كان التاريخ يعجز عن تمزيق حجاب القدمية القصوى ليكشف لنا تفصيل ما أحدثه الزمان مع تلك العائلة هناك . الا انه مع ذلك قد ينهج لنا طريقاً نسير به على قدم الاستقراء الى حيث نقول :

ان هذه العائلة قد اغتنمت لذة العيش في ذلك المكان الخصب فمكثت به آمنة وصارت تعيش بنتائج الارض وحواصل الحيوانات المنفردة هناك وتسلك تحت ارشاد الكبير منها خلفاً بعد سلف ، ولم تزل مع تقدم الزمان تنمو وتتسع بانضمام آخرين اليها ، حتى صارت جمهوراً غفيراً يجري تحت سياسة ذلك الكبير الذي كان يخترع شرائع وقوانين يلتزم باعتناقها كل فرد من هذا الجمهور لدفع وقوع الخلل في نظام الجمعية . وبناء على ذلك سموه أميراً ، ولكن المواشي والانعام قد كثرت أيضاً وتعاظمت هناك لتواصل الداخلة وانقطاع الخارجة كما تطلب طبيعة حيوان الكلأ اذ يوجد الانسان ، لم تعد من ثم تلك البقعة كافية لاشباع الجميع بدون توجيه الاعتناء بها فصارت القطعان تتشتت ، ولذلك بادر الناس الى فلاحة الارض وتهذيبها بعد ان تعلموا العملية الانباتية من نفس الطبيعة ، لانهم كانوا يراقبون كيفية هذه العملية من السنابل أو القيصلات التي كانت تطرح الحبوب أو البزور في التراب بعد النضج فتندفن هناك ثم تنهض نامية على شكل الاصل

والتسهيل اجراء التقليد للطبيعة في الفلاحة شرعوا يستخلصون المعادن الصلبة من مدافنها ويعالجونها بالنار الموقودة من حطب الغاب . فيسكبونها آلات ويستخدمونها في حرث الارض وتحريك الاثقال آخذين الثيران أعواناً لهم .

وعلى هذا النمط أخذوا يتمتعون هم ومواشيهم بغلات الارض وأثمارها برفاهة وصاروا يدفعون الاعشار لأميرهم أجرة لما كان يعانيه لأجلهم . لانه كان يحمي برجاله مزارعهم وحقولهم ويمنع تعدي هذا على أمتعة ذاك . مدافعاً عن تخوم أرضهم هجوم المغتصب . ساهراً على جميع أحوالهم السياسية بدون أدنى خالل في ترتيب الجمهور . حاكماً بينهم بالعدل قاضياً بالانصاف ناشراً على الجميع راية شريعة واحدة غير ملتفت الى الامتيازات الادبية مالم يكن لأربابها نفع المصلحة العامة ، مجتهداً بكل أمانة في راحة شعبه ورفاهيتهم ، عارفاً ان من يأخذ أجرته يُطالب بالعمل واذا لم يعمل يسقط من عين ذاته بحيث من لا يؤثر أن يعمل فلا يأكل ، عالماً ان السياسة او الرئاسة اذا وقعت في غير محلها تطاب من الشعب إنقاذها ، غير مأخوذ بخمرة حب الرئاسة التي اذا ماخامرت العقل منعت بأبخرتها الكثيفة نفوذ أشعة الصواب اليه ، متيقظاً لكل واجباته ، صاحياً في كل أعماله ، ذا سلوك حسن مع الجميع ، محباً للغرباء ، قادراً على السياسة ، لا سكيراً ولا ضراباً ولا طماعاً ، وبعد مضي فترة من الزمان صار أولئك القوم ينحتون من الجبال حجارة ويشوون من التراب قرميداً ويوقدون من خشب الشجر ناراً .

ولما رأى اولئك القوم أن هيئتهم الاجتماعية قد إنطوت على كل شروط الامن والسلام وصارت حديقة حيوتهم تزهو بأثمار الدعة والسكون تحت سياسة أميرهم وإعتنائه أعلنوا جميعهم وجوب الطاعة والانقياد له وقد مُلئت قلوبهم من محبته . وصاروا يسمون أنفسهم عبيده ويحامون عن حقوقه وحقوق بيته بكل مقدرتهم . وهو كان يضاعف اهتمامه في جميع مصالحهم العامة او الخاصة غير مفتكر الاَّ في دوام راحتهم ولا ملتفت الا الى وقايتهم من كل المزعجات مسمياً إياهم شعبه وأولاده

ولما كان لا يمكن لنظر الرائي ان يدرك جلياً كيفية امتداد السياسة على العالم ،

ولا أن يستوضح حقيقة المسلك الذي نهجته لها الاقدار ، لما يعترضه هناك من ظلمات الاحقاب والاعصار ، وجب عليه حينئذ أن يستخدم العقل كمصباح لكي يمكن لأعينه بواسطة أشعة الانتقالات الفكرية أن تنفذ في تلك الظلمات الدامسة فتفوز بمشاهدة ما وراء ذلك

فهلم اذن ايها الرائي واتلُ علينا بقية ماجرى هنالك وأخبرنا عما عثرت عليه من المواقع بعد ان استطلعت العقل نيراً في أوج الغوامض

انني بعد انأولجت نظري طويلاً في بحر زاخر من الظلام الهائل حيثما كانت أمواج التيه والمعاثر تتلاطم تحت مهب عواصف الايام والليالي أنفذته أخيراً من هذه اللجج العميقة الى سهل فسيح الامد يعانق بباع نهايته أفق البداية ، واذا مسرح عظيم قد انفتح أمامي . واذ كنت عاجزاً عن استجلاء الاشباح اللاعبة فيه تماماً لشدة توغلهم في عباب القدمية وضعت على عينيَّ نظارة الاستقراء وجعلت أتأمل

فرأيت جموعاً عديدة من الناس قائمين بمهمات عظيمة ومقيمين ضوضاء حافلة وهم يصيحون في بعضهم البعض قائلين : هلموا نبتني لأميرنا برجاً يبلغ رأسه الى السماء فكان البعض يقطع من الجبال حجارة ، والبعض يصنع طينا ، وآخرون يشوؤن لبناً ، وغيرهم يسرد تراباً ، وما برحوا يحفلون باقامة البنيان حتى انتصب برج عظيم وصارت تخفق عليه راية أمير القبيلة .

وهكذا شرع كل انسان يبني له بيتاً ولمواشيه مزوداً حتى قامت مدينة عظيمة المشاد يضج في شوارعها أفواج وافرة من العباد ، ولما صارت الاسواق تطن بمطارق معامل المعادن ، والشوارع ترن ، بأصوات الصنائع والاشغال اليدوية ، والساحات ترجف تحت أقدام المحافل والجحافل ، والمسارح تتموج لدى لطم أمواج الاصوات الاحتفالية الآتية من أفواه آلات الطرب ، صار يدوي في آذان الشعوب المتفرقة صوت ذلك الضجيج المرتفع واللغط الهادر ، فكانوا يتقاطرون أجواقا أجواقا ويخيمون في ظلال المدينة طالبين من سكانها أن يقبلوهم في الجوار لكي يتخلصوا من مشاق البداوة ويفوزوا براحة الحضر

وهكذا كانت تلك المدينة تقبلهم بكل اكرام على شرط أن يخضعوا لأحكامها وشرائعها ويؤدوا الاعشار لأميرها، فلم تلبث ان تعاظمت جداً وتضاعفت مساحة وسكاناً وصارت محاطة بأسوار رفيعة وحصون منيعة، حتى أضحت مركز رهبة يدور عليه احترام القبائل وموضوع عظمة يحمل عليه حسد البشر.

وبينما كانت هذه المدينة الزاهرة رافلة بأذيال اليمن والكرامة، مختالة بسربال الهدوء والسلامة، تطفح في حاناتها كاسات السرور، وتشدو في حدائقها بلابل الحبور، واذا عجاج يثور عن بعيد ونقع غبار يتصاعد الى الجو، حتى عاد يظنُّ ان زوبعة شديدة قد نهضت من جوف الثرى وهمت أن تكحل أعين السماء بأثمد تراب الارض، وكانت أصوات كهدير هجمات المياه تهب من تلك الجهة، فصايل تمازجه قعقعة اللجم وصهيل تتخلله نقرات حوافر الخيل، وما كان الا كتردد الفكر بين شك ويقين حتى أسفر ذلك الغبار عن جيش جرار يتموج على الصهوات ويفري بطون الفلوات

فلما نظرت عينا الامير ذلك العجاج الثائر وسمعت أذناه تلك الاصوات الضاجة لم يعد عنده ريب ان عدواً سمع بجلال مدينته فدفعه لهيب الحسد الى اشهار الحرب وايقاع الحصار

ولما ثبت عنده ذلك الغضب المقبل أخذته ثورة الحمية ودارت في رأسه حرارة الوطن ونادى في جميع المدينة معلناً صوت الحرب حيثما اصبح الاهلون فريسة ترتعد بين مخالب الجزع والهلع لما عاينوا مما لم يعاينوا. فأوعز اليهم أن يجتمعوا في احدى الساحات الفسيحة رؤساء ومرؤوسين رجالا ونساءً كباراً وصغاراً أغنياء وفقراء بدون أدنى امتياز أو تفريق. لكون الجميع لهم أن يحاموا عن حقوق الوطن ويقتسموا مطاليب محبته سوية لوجوب حقه على كل من لا ينكر عليه حق التمتع بخيراته.

وعند ما تمَّ الاجتماع وشممات النخوة كل الجموع وقف ذلك الامير على مرتفع عال وأنشأ يقول:

هو ذا الغرباء قد أحدقوا بنا فدونكم والطراد. وها الاعداء قد هاجمونا فعليكم

بالجلاد . أنتم الاسود وهم الكلاب. فواعجباً لكلب يقحم الغاب. هلمّوا الى النزال هيّا الى القتال . انزلوا بهم الحسام المسنون وانظروا أي منقلب ينقلبون .

ولما فرغ الامير من مقاله برز رجل عليه سيماء الذكاء والحماسة ورفع صوته بلسان فصيح وسط الجمع وجعل ينشد :

نشيد الحرب

هبّوا من الغفلات يا أهل الوطن ... ان العدوّ دنا وها نار الفتن
حتى متى يا أسد صبركمُ ألا ... هبوا فقد حام الذئاب على الدمن
هجم العدوُّ وها الغبار وأنتمُ ... من ذا الغبار ستنسجون له كفن
لا تخجل الغربان في سعة الفلا ... يوماً اذا نهض العقاب من الوكن
ناداكمُ الوطن الذي قد ضمّكم ... في حضنه وسقاكمُ ابن المنن
كرّوا الى الاعداء كرّ الاسد يا ... أسد الوفاء فهم ثعالبةٌ خَون
واصغوا لصوت أبٍ لكم يرجو الحمى ... منكم وهبوا واطردوا عنه المحن
أو ما ترون الدمع منه لأجلكم ... يهمي فقوموا نشّفوا دمع الوطن
لا يحسن الموت الزؤام لدى امرئ ... لكن فدى الاوطان موتكمُ حسن
فتقلدوا عدد السلاح وبددوا ... جيش العدى وخذوا أمامكمُ الزمن

فما فرغ من انشاد نشيد الحرب حتى صارت أعين القوم تنثر شرر نيران الحمية التي كانت تتوقد في القلوب . فأخذ جميع الرجال يتراكضون الى الاسلحة أفواجاً ويندفعون من أبواب الاسوار كاندفاع الصواعق من بطون السحب وهم يصرخون لامقبرة الا وراء السور ، وكان الامير ساعياً أمامهم كأحد الجنود . أما النساء فكنّ يحافظن على الاولاد ويجهزن أدوات الحرب ، وهكذا أخذت الموقعة تنتشب بين الجيوش ، فكانت أصوات المقاليع ترن بين الاودية ، والحجارة تترامى بين الصفوف ، وعمد الحديد تتساقط على الرؤوس ، ولم تزل الحرب دائرة حتى صارت الصدور تتلاطم والايدي تتقاوم وكان الغبار يتصاعد من الارض كتصاعد الدخان من فم الأتون . ومابرحت

هذه الملحمة مشتبكة حتى أخذ جيش العدو يتقهقر الى الخلف ناكصاً على الاعقاب ، وصارت جيوش المدينة تنادي خلفه بالغلبة والظفر . ولم تلبث أن شتتت شمل الاعداء ونثرت نظام صفوفهم وأسرت أكثر أجنادهم .

فوقعت خشية الامير في قلوب سائر الاخصام وعمت هيبته على كافة الاصقاع وازدادت محبته في نفوس شعبه الخاص وصار الجميع يقدمون له الخراج ويقولون ليعش الملك ولتدم المملكة .

وهكذا لم تزل هذه المملكة تنمو وتتسع ويمتد سلطانها الى الاصقاع السحيقة حتى صارت أخيراً واسعة السياسة قائمة الشرائع والروابط بحيث لا عاد يستطيع أحد ان يعيش الا تحت ذلك النظام .

فيظهر لنا مما تقدم انه على هذا النمط قد كان ظهور السيادة والسياسة في العالم القديم وعلى ذلك المنوال كان قيام الممالك ، فمن يعلم ان مملكة اثور اوفينيقية لم يكن ظهورها وامتدادها على النسق المذكور ؟ ومن يعلم ان مكدونية التي ابتلعت تلك الامتين لم تكن بدائتها هكذا ؟ وأمر واضح هو أن رومية التي خفق نسرها على المسكونة قد كانت في الاصل أكواخاً .

ولما فرغ الفيلسوف من مقالته هذه نظر اليه الملك نظرة المندهش وقال له :

— ولئن كان خطابك هذا مبنياً على نتائج الوساوس والظنون مفعماً من أحلام المخيلة وأوهام الفكر ، الا انه مع ذلك لا يخلو من رائحة الصواب وسمة الحقيقة فلا بأس فيه

وهكذا رمقته ملكة الحكمة بمقلة المرتضي واستصوبت خطابه .

وبعد وقوع السكوت في مرسح المطارحة برهة زهيدة وخلو المجلس من الحديث ، أخذ الملك يناجي الملكة بصوت سري لم أعلم من موضوعه سوى الاهتمام بما جرى البحث فيه

واذ رأى الفيلسوف أنَّ بواعث المناقشة صارت تحول دون مناجاة الملكين نهض مخلياً لهما المكان وسار قاصداً جهة قائد جيش التمدن الذي كان يتخطر على مسافة

غير بعيدة . ولما دنا منه وتلاطمت النظرات تبادلا مصافحة الاكف وسلما على بعضهما البعض ثمّ جلسا معاً على جزع شجرة عظيمة قد أضجعها الزمان .

ولما مكن الفيلسوف نظره من القائد وجد عينيه متقدتين بلهيب الغضب . ووجهه مبرقعاً بسحابة الغيظ . وأثوابه مضمخة بالدماء . فعلم للحال ان هذه الظواهر ناجمة عن مواقع الحرب . فأخذ يطيّب خاطره بعبارات لطيفة و يبشره باقتطاف ثمرة مشروعه قائلا :

— مالي أرى دخان الهيجاء يتصاعد الى الآن من منخريك يا أيها القائد الشجاع . ولماذا يتناثر شرر السخط من عينيك ؟ ولِمَ لم تلق عن وجهك لثام الكمد ؟ وأنت الظافر بالعدو والقاهر صفوف المردة والمنادي في مسرح الكفاح هو ذا أنا الغالب . ألعلّ الغضب لا يرحل بعد حلول الانتقام ؟ وهل الانتقام لا يروى لدى فيضان نهر الانتصار؟ وكيف لا يتبسم الانتصار عند ما يظفر صاحبه باكليل الغار؟ رحب صدرك فقد أنزلت بالاعداء نكبات الضيق . شدّ حقويك بالقوة فقد ضعفت عزائم الاخصام . انقذ أطوار وجهك من اسر الغيظ فقد سقطت دولة العبودية . كيف يزأر الاسد والفريسة ترتعد بين يديه ؟ كيف يعتكر البحر والرياح قد سكنت أمامه ؟ كيف يكمدُّ الصباح والليل يتمزق ازاء وجهه ؟ نعم قد بذرت الحروب ولكن حصدت السلامة ، نعم قد غرست القتال ولكن جنيت الظفر ، نعم قد أمتّ العبودية ولكن أحييت الحرية ، نعم قد قيدت البربرية ولكن أطلقت التمدن ، فاحكم بما شئت واقض ما أنت قاض

فأجابه القائد مبتسماً وكأنه دخل في خلق جديد .

— ان دوام لوائح الغضب والكآبة على وجهي الى الآن ليس مسبباً عن تلك الحروب والمواقع التي ملكتنا بها الغلبة والنصر والتي تستدعي ظهور لوائح الفرح والابتهاج بل عن سبب مهم جداً .

— وما هذا السبب ؟ سأل الفيلسوف .

— هو اعتماد الحضرة الملوكية على ارجاع العصاة الى أوطانهم ومملكتهم .

— نعم قد بلغني ذلك ولكن على شروط كثيرة منها ارفاقهم بجماعة من طرف دولتكم كرقباء على كل أحوالهم وأحكامهم ومنها الزامهم باتباع شرائع التمدن وقوانينه.

— ان أولائك القوم هم محتالون منافقون وليس لهم ذمم ولا عهود تربطهم ، يقولون مالا يفعلون وفي كل واد يهيمون ، أما تعلم انه لا يوجد لاهل الخشونة والبربرية ميثاق سوى الكذب ، ولا شريعة غير الاحتيال والمكر ، ولا حكم عدا التعدي والظلم ، ولا حاكم خلاف الرشوة ، ومن أصعب الامور اخضاعهم بدون تبديد شملهم واهلاكهم عن آخرهم .

- نعم كل ذلك هو أكيد ولا ريب فيه ولكن متى شاعت بينهم شرائع التمدن وطفقوا يتعلمونها من نعومة أظفارهم وقام عليهم رقباء يسهرون عليهم من طرفكم، لا يظلون على تلك الخصال التي ذكرتها ويصيرون بعد قليل من الزمان طبق المراد

— ربما يتمُّ ذلك ولكن بعد ألف عام

— ولماذا كل هذه المدة ؟

— لأنهم شعب منقسم على نفسه مؤلف من كل قبيلة وملة تحت السماء، فكل حزب منهم يبغض الآخر ويجتهد بخرابه ودثاره، بناء على أن المحبة لا تقوم في اختلاف الاجناس، ومتى بطلت المحبة زال التمدن لانها الاساس الاول له . ومتى زال التمدن تمزقت أحشاء الوطن وخفقت عليه أعلام العبودية . فلا يمكن رفع كل هذه الصعوبات ما لم يمرُّ زمان طويل جداً .

— انه وان كانت كل هذه المبادئ صحيحة فربما لا يمتنع نهوض التمدن في وسطها لان قوة انتشاره تغلب كل تلك الصعوبات كما جرى ذلك في امم كثيرة مختلفة الاصل والفصل .

— أظن انه بدون قوة المعجزات لا يقوم انتشار التمدن ما بين هذه القبائل . واذا كان جرى ذلك ما بين أقوام مختلفين أصلا وفصلا فهم قد كانوا متفقين ميلا ورأيا .

- لاحاجة هنا الى المعجزات والآيات .
- اذن بأي قوة ينتشر التمدن ؟
- بقوة دعائمه المرتكزة على قلب الانسان طبعاً قبل انحرافه الى الفساد .
- كم دعامة يوجد للتمدن ؟
- خمس دعائم .
- هل يمكنك ذكرها لانني أفتكر انه يوجد أكثر من ذلك ؟
- نعم توجد دعائم أخرى للتمدن ولكنها تدخل طي الخمس التي أشرت اليها
- فاشرح اذن لي ذلك :

الفصل الخامس

التمدن

قال الفيلسوف : ان التمدن في اللغة هو التخلق بأخلاق أهل المدن والانتقال من حالة الخشونة والبربرية والجهل الى حالة الظرف والانس والمعرفة وفي اصطلاح علماء الاجتماع ناموس يرشد الانسان الى تجويد أحواله الطبيعية والادبية . وهذا الناموس يبنى على خمس دعائم وهي ، أولا تهذيب السياسة ، ثانياً تثقيف العقل ، ثالثاً تحسين العادات والاخلاق ، رابعاً اصلاح المدينة ، خامساً المحبة :

الدعامة الاولى

تهذيب السياسة

انه لما كان مدار نظام العالم الانساني لا يمكن صونه من كل خلل الا بحسن سياسته ، بات من الضروري الاهتمام والالتفات الى تهذيب هذه السياسة وتحسينها لكونها محوراً يدور عليه عالم كبير يستحق كل الالتفات الى نظامه .

ولا يوجد لهذا التهذيب أساس آخر سوى توطيد الحق وتمهيد اسباب الراحة للهيأة الاجتماعية لانهما المركزان الاولان اللذان يتوقف عليهما مدار السياسة العامة. ومتى طرأ على الاساس خلل ما لحق ذلك الخلل بكل ما بني عليه .

ولا يمكن بقاء ذلك الاساس وطيداً الا تحت جملة أحوال وهي : حالة الشخص الذي يتعاطى السياسة،فهو يجب أن يكون رجلا من أصل كريم وموسر ، لانه متى كان هكذا يكون بطبيعته ذا تربية حسنة وصالحة فيكون ذا صفات حميدة وأخلاق رضية حسبما يستلزم حسن التربيـة ويقتضي صلاح الاحكام ، ثمَّ يجب أن يكون مروضاً بالعلوم الرياضيـة والادبية ومثقفاً بمعرفة الشرائع والقوانين ، لأنّه اذا كان يجهل هذه الامور لا يكون قادراً على تتميم خدمته ويعود حينئذ مضطراً الى الاسترشاد بالاجانب أو تحكيمهم وهم ربما يضلونه أو يخونونه لاغراض ذاتية لهم ، فتصير كل أحكامه فاسدة ويقع في مهاوي اشمئزاز الجمهور ، ثمَّ ينبغي أن يكون فطناً نبيهاً لانه اذا كان خاملا لا تجد دقائق السياسة محلا في عقله فيضيع الحق وتضطرب الاحكام فيصبح المحقوق غالباً والمحق مغلوباً ، ثمَّ يقتضي أن يكون عادلا لان العدل يثبت الحكم ويوطده ويجعل الحاكم محبوباً من جميع الناس ممدوحاً من الاخيار مهاباً ومخافاً من الاشرار الذين لا لجام لجماح شرهم سوى هيبة الحاكم ، وخلاف ذلك الظلم لكونه يهدم بناء السياسة ويعارض اتجاهات الحق ويلقي المقت والكراهية في قلوب الشعب وينهج سبيلا رحباً لهجوم العصاة وتمزيق الهيئة . ثمَّ يجب أن يكون قنوعاً لان الطمع نتيجة التولع بالمال وحيثما وجد الولع بالاموال فهناك يوجد التعرّض والارتشاء الصفتان اللتان متى باشرتا قلب الحاكم أزاغتاه عن الحق وسدلتا بينه و بين المصلحة العامة حجاباً كثيفاً ، ثمَّ يجب أن يكون ذا أناة لان الاناة هي الآلة الوحيدة لاستقصاء الحقائق من صدور المتداعين حتى تصح الاحكام ، اما العجلة فعليها يسافر الصواب . ثمَّ ينبغي ألا يكون سكيراً على انه لا يوجد أعظم طارد للرشد والنباهة من مداناة الدن ومخامرة الخمر فمتى ذهب رشد الحاكم فسدت الحكومة و بطل الحق . ومن الواجب أن يكون شجاعاً لان الشجاعة درع للرؤساء وردع للمرؤسين ولا عار أعظم من جبانة الرئيس لانها تبقيه عاجزاً عن اقتحام صعوبات الرئاسة وتجعله كريشة ترتجف لدى هبوب كل ريح . ومن الضرورة أن يكون غير ممازح لانه متى لازم المزاح سخرت منه الناس واستهجنته وربما استقلت بعقله

فلا يعود احد يعتبر أحكامه مهما كان حازماً

ولا شك ان وجود صفات كهذه في الشخص الذي يتناول زمام الحكومة قد تستلزم وجود نتائجها ما بين أتباعه وحواشيه الامر الذي له دخل كبير في واجبات السياسة . أما العكس فالبعكس وذلك كالمركز الذي تتوقف استقامة أقطاره على استقامة وضعه فبمقدار كونه مستقيماً تستقيم و بمقدار كونه منحرفاً تنحرف

ثانياً حالة الاستواء : ان أعظم المقوّمات لصحة السياسة واقامة الحق هو ان يكون مجرى شرائعها متساوياً على كل أبنائها بدون أدنى امتياز بين الاشخاص او تفريق بين الاحوال . فلا يجب الاخذ بيد الكبير ودفع الصغير . ولا الالتفات الى الغني والاعراض عن الفقير . ولا مؤازرة القوي ومواراة الضعيف . بل يجب معاملة الجميع على حد سويّ كيلا يقع خالل في نظام الحق. لان كل فئة من الناس لها منزلة في طريق السياسة تستدعي النظر اليها . فكما ان العظماء والاغنياء هم القوة الواصلة كذلك الصغار والفقراء هم الآلة الموصلة . فلولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير . ولولا تعب ذوي الفاقة لم تتسهل متاجر أرباب الغنى ولم تحرس أموالهم ولم تقم قصورهم العالية وسرادقهم المشيدة . ألعلّ ذلك الغني عندما يأتي من مواطن ملاهيه ومسارحه الى مسكنه الوسيع ويضجع على فراشه المصنوع من ريش النعام وينظر الى رقوش حجرته ونقوشها لا يفكر في ذلك المسكين الذي بعد ان يكد ويكدح طول النهار مقاسياً حرّ صيفه ومتكبداً برد شتائه لاجل تشييد ذلك المسكن وتنميق تلك الحجرة فيذهب الى كوخه الحقير ويأكل خبزته اليابسة مع أولاده العراة الجائعين ثمَّ يضجع على فراشه الخشن تحت لحاف الاعياء والوصب . فهل كل هذا التباين لا يكفيه حتى يرغب في إيقاعه ايضاً في موقف الحق الذي يستوي عنده الجميع . وهل يسوغ لارباب السياسة أن يقبلوا وقوع هذا التباين و يجحفوا بذلك المسكين الذي بدونه لا تصل قوتهم الى مواقعها أفلا يخافون من وثوب التسعة والتسعين وفرط عقد الجمعية

ولماذا يوجد حق لأصوات الاغنياء اذ ترن في قاعات السياسة ولا يوجد هذا الحق لأصوات بقية الشعب الذين هم الجانب الاكبر والأهم والذين بواسطتهم تقوم

سطوة الممالك وقوات الملوك وعليهم يتوقف مدار السياسات . فلا شك ان لسان السياسة نفسه ينادي بوجوب حالة الاستواء ويصرخ ضد المستبدين

ثالثاً حالة المطابقة : ان منزلة السياسة من الهيئة الاجتماعية هي كمنزلة الدم من الجسد . فكما ان هذا السائل يقوم بتغذية الجسد و بدونه لا تثبت الحيوة . هكذا السياسة تقوم باعالة تلك الهيئة و بدونها لا يثبت النظام . وكما ان الدم يجب أن يكون بمقداره ونسب أجزائه لما يحتاجه الجهاز العضوي بحيث اذا لم تحصل هذه المطابقة ان يكن من قبيل الزيادة او النقصان لا تلبث الاعضاء على صحتها وتقع في حالة الاضطراب في وظائفها هكذا ينبغي أن تكون السياسة مطابقة بقوانينها وشرائعها لما يقتضيه واقع الحال بدون زيادة ولا نقصان. ومتى عدمت تلك المطابقة زاغت الهيئة عن واجباتها واضطرب كل نظامها . وكما ان السائل الدموي يستلزم التنقيص عند زيادته استدراكاً لوقوع الامراض الالتهابية والازادة عند نقصانه دفعاً لنهوض العاهات الافتقارية . هكذا يجب أن تعامل الاحكام السياسية في محكوماتها حذراً من وقوع البلبال . فلا ينبغي أن يستعمل الحاكم الصرامة والقساوة والجور والانتقام مكان الرفق والشفقة والحلم والاغضاء . وبالعكس. يجب توقيع كلٍّ من الحالين في محله بحيث اذا زاد او نقص يجب تعديله بحكمة ٍ حذراً من اخلاله بالواجب السياسي

ولما كانت حوادث الهيئة الاجتماعية تختلف جرماً وموقعاً كان لكل منها شأن يستوجب حكماً يلائمه ويطابقه ولكل حكم قوانين تناسبه وتشاكله . وهكذا فتكون الاحكام وقوانينها مختلفة باختلاف الحوادث الجارية فمتى استعمل الواحد محل الآخر نشأ خلل عظيم في نظام السياسة يستدعي خلل الهيئة جميعها . فلا يصوغ تنزيل واجبات الكبائر منزلة واجبات الصغائر ولا يجوز ايقاع الحوادث العظيمة في موقع الحوادث الحقيرة بل يجب اعطاء كلٍ حكمه ليستوفي كلٌّ حقه

وبما ان الاحكام والقوانين تعتبر كاجزاء تؤلف جسم الشريعة في عالم السياسة وجب أن يكون كلٌّ من هذه الاجزاء ثابتاً على نقطة وضعه و بناء على ذلك نرى انه متى زاغ أحدها عن الوضع المعين له يقع حالا في حركة الاضطراب . و يستفز

البقية الى مشاركته في تلك الحركة ولم يرجع الى سكونه و يسترجع حالته مالم ينقطع تأثير الفاعل عنه بحيث اذا دام متواصلا ينهدم بناء ذلك الجسم و يتشتت شمل اجزائه حسبما يتم في الاجسام الخزفية

ثم لا يستعمل الحرب مكان السلام ولا السلام مكان الحرب لان احدهما يبدد والآخر يجمع . ومتى نزل أحدهما منزلة الآخر تزعزعت أساسات الهيئة الاجتماعية .

رابعاً حالة المصلحة العامة . ان أهم دواعي السياسة وأعظم بواعثها هو النظر الدائم الى المصلحة العامة وتواصل السهر عليها بحيث مهما أتقنت السياسة نظامها وأحكمته ولم تلتفت الى هذه المصلحة أو تغافلت عنها فلا تعتبر الا كمساعد على نثر عقد الهيئة الاجتماعية التي لا يمكن دوامها منظوماً مالم تكن الملاحظة السياسية عاصمة له . اذ ان اهمال ما يسبب العمار هو تسبيب لوقوع الخراب والدمار وهذه الملاحظة تنحصر جميعها في توقيع ما يئول نفعه الى العامة اجمالا وأفراداً ودفع ما يفضي الى الضرر

وذلك يستريح على خمسة أركان . وهي: تمهيد سبل العلوم ، وتسهيل طرائق التجارة ، وتقوية وسائط الصنائع والاشغال ، ومساعدة الزراعة والفلاحة ، وقطع أسباب التعدي

أما الركن الاول الذي يناط بتمهيد سبل العلوم . فهو يتضمن المساعدة على تشييد المدارس وتسهيل الدخول فيها أمام كل من يرغب . وترقية الناجحين بالدراسة هلى قدر الاستحقاق

والركن الثاني الذي يلاحظ تسهيل طرائق التجارة فهو يتوقف أولا على تقريب ابعاد الاسفار بواسطة اصلاح الطرقات ، ثانياً على ازالة مخاوف ومعاثر الطرق وتوطيد دعائم الامان والسهولة ، ثالثاً على وضع حدود ونظامات تجري على كل أرباب الحرف بحيث لا يستطيع أحد تجاوزها ، رابعاً وأخيراً على منع كل الصعوبات التي يمكنها صدم تقدم التجارة وابطال كل عائق لسيرها.

والركن الثالث الذى يخص تقوية وسائط الصنائع والاشغال فهو يتأسس أولا على اثارة همم ذوي الاختراعات بتعظيم جوائزهم و رفع شأنهم وتهيئة مابه يمكنهم

من اقتطاف ثمرات أتعابهم، ثانياً على توسيع دوائر الادوات الصناعية وتضييق مساحة التلف والمصاريف . ثالثاً على رفع كل ما يوقف الخطوات عن الهجوم الى معاناة الاشغال العظيمة . أخيراً على المساعدة في تكثير المعامل وتسهيل مجراها

والركن الرابع الذي يتعلق بمساعدة الزراعة والفلاحة فهو يقوم برفع الجور عن الفلاح، وفتح الطريق للزارع ، وتعجيل خطوات الحصاد ، ومنع ظلم العشار و بطش المحتكر . و بملاشاة كل موانع البدار وتسديد جميع مطاليب الارض

والركن الخامس الذي يشمل رفع أسباب التعدي فهو يستوي على ثلاث قضايا فقط وهنّ حماية المتاع وصيانة الاعتبار و وقاية الارواح

الدعامة الثانية

تثقيف العقل

انه اذا فحص الجوهر الانساني من حيث فطرته الاولى وأصله الطبيعي انما يشاهد لامعاً بكل الصفات الساذجة والخصال البسيطة حسبما يبان ذلك من كل انسان يتربى منفرداً عن ازدحامات عالم المخالطة

ولما كان عظم لطافة هذا الجوهر وشدة احتياجه الى وقاية نفسه سبباً فعالا لقبوله التأثر بكل صورة تلوح له والتخلق بكل سمة يحافظ بها على ذاته . كان نضمامه في سلك الجمعية اذ ذاك موجباً لانطباع صور الحوادث الاجتماعية والوقائع الادبية على صفحات قلبه وتطبعه باخلاق وطباع بها يمكنه أن يعارك و يزاحم أمواج العالم البشري و يعيش تحت لواء حوادثه

وهكذا فقد أفضت به أخيراً كثرة تقلبات الاحوال والاجيال الى أن يفقد كل أطوار تلك الفطرة الاولى و يصير من أشر المخلوقات وأوحشها

ومن ثمّ لم يعد الانسان قادراً على الدخول في دائرة التمدن الذي يطلب سذاجة الصفات وسلامة الطباع الا اذا كان متزيناً بتثقيف العقل الذي يعتبر كآلة عظيمة بها يمكن لكلّ من البشر أن يسترجع الى طبيعته ما أفقدها التوحش

ولا يتمُّ هذا التثقيف الا بالتروُّض في العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والادبية . على انه أمر محقق كون العـلم يخلق في الانسان قلباً نقياً وروحاً مستقيمة ويجعله ظافراً بكل الصفات الصافية ونافراً عن كل ما يشين الجوهر الانساني . ولا يترك له سبيلاً الى التفكر في الامور الدنيئة والاميال المنحرفة الامر الذي منه تشتق كل أفعال الشر وعليه تبنى كل دعائم التوحش

فكيف يفكر الانسان مثلاً في دناءة السلوك عند ما يكون الفلك طائراً به الى أعالي الاجرام السماوية حينما يرى ألوف ألوف وربوات ربوات من النجوم التي هي شموس هائلة الحجم وكل منها جالس على عرش الفضاء ثابت في مركزه وتدور حوله كواكب سـيارة مختلفة الابعاد والاشكال وجميع ذلك له من السمو والعظمة ما يخبر بعظم أعمال الله تعالى

وكيف يأخـذ بذهنه الهتك بالقريب بينما تكون الطبيعة هاتكة له أسرارها ومبدية لديه غوامضها . فاذا نظر الى الارض يراها تدعوه الى تمييز تراكيب طبقاتها وتعديد مفردات عناصرها ومعرفة نسبة كل من موادها الى غيره . واذا تأمل في الحيوان رآه باسطاً أنواعه لدى حكمه وطالباً منه فصل كل صنف عن الآخر. واذا لحظ النباتات رآها كأنها تدعوه الى معاينة عجائب نموها وماهية جوهرها وكيفية تغذيتها وعملية أنتاجها وتأثير خاصياتها وكأنها تكلفه احصاء كل من أنواعها وتحديده تكليفاً فوق وسعه

وكيف يرتضي بعمل المنكرات حينما تكون الـكيمياء مقدمـة له مشكلاتهـا وطارحة عليه مسائل غوامضها . فلا يكون عرف صفات عنصر ما وعلم نسـبة اتحاده بغيره وكيفية قوامـه الا ويبرز لديه عنصر آخر ويدعوه الى تفنيده فيذهب خابطاً في عباب المشكلات حينما يقابله مولّـد الحوامض بايقاده وانارته ويطارحه مولّـد الماء برشاقته ولهيبه ويناقشه حامل الانوار بلمعانه واضاءته ويدهشه الذهب بثباته وثقله وتذهله الفضة بوضاءتها ونقاوتها ويلاطمه الحديد بكثافته وصـدأه ويحيره الزئبق بفراره ونفاره

وكيف يسمح لاميالة أن تسرح في عالم الشرور والمعاصي حيثما تكون الجغرافية سارحة به على ظهر هذه الكرة الارضية المملوءة من عجائب الخليقة وغرائب الحوادث فتارة تطير به الى قمم الجبال العالية فيرى ما بها من الاودية العميقة والسلاسل المستطيلة والينابيع الجارية . فيفكر فيمن سبب المرتفعات ومن أحدث المنخفضات ومن جمع المياه . وأحياناً تمرّ به على السهول الواسعة والبحار الشاسعة والأنهار المتدفقة . فيقف متفكراً فيمن جمّد اليابسة وجمع السوائل الى مكان واحد. وأوقاتاً تسوح به في الاقاليم والاقطار فيستوقفه اختلاف العرض والطول في ميدان التأمل بتباين المناخات والاهوية وطوراً تترحل به الي بلاد لاعدد لها وأماكن لاتحصى وجميعها تختلف باختلاف المواقع والوقائع فيقف متحيراً فيما تحويه الارض من الامم والقبائل المختلفة في المذاهب والمشارب والهيئات . ومندهشاً لما يراه من أحوال البلدان والسياسات والشرائع . ومتمعناً فيما يعاينه من الصنائع المتنوعة الاشكال والتجارات المتشكلة الاحوال وهكذا يطوف به هذا العلم الى أقاصي العالم بدون أن يترك له سبيلا للجولان في عالم المآثم وهو جالس على وسادته غير مبارح صديقاً ولا مفارق حبيباً

وكيف لا يبدل الاعمال الرديئة بالصالحة عندما يكشف له التاريخ حجب الاجيال الغابرة و يطلعه على كثيرين من البشر الذين كانت أعمالهم سبباً لاحوالهم ان رديئة فرديئة أو صالحة فصالحة . ويظهر له كم وكم من الناس الذين بواسطة سموّ أفعالهم قد بلغوا أسمى المراتب وأعلى المنازل . وكم وكم من الناس الذين بواسطة دناءة أفعالهم قد هبطوا الى الحضيض . لا بل يظهر له ان كثيراً من الممالك العظيمة القوة والراسخة الاركان قد أفضت بها قبائح السلوك الى الاضمحلال والتلاشي . وكثيراً من الولايات الصغيرة قد آلت بها قوة الاطوار الحميدة الى الاتساع والامتداد و رفعتها الى سماء المجد والكرامة . وخاصة يظهر له ان أفعال الخشونة والتوحش ما كانت تبدد الممالك وتستأصل الملوك فقط بل كانت أيضاً تشتت العباد وتهدم البلاد مهما كانت حصينة وغنية

أفلا يشعر بحركة غامضة في أعماق قلبه تدعوه الي احتقار العظمات الانسانية

والفخفخات الكاذبة الخيالية وتجذبه الى الاتصاف بالصفات السليمة والتخلق بالاخلاق الحميدة وذلك حينما تمتطي تأملاته السرية خيول التاريخ وتجري في برية سوريا مثلاً حينما يشاهد ان عظمة ذلك الاقليم القديم العهد والكريم التربة والاصل قد استحالت بفعل الاجيال الخشنة الى دمار مهول بحيث ماعاد يُرى سوى خرابات تلقي الكآبة على الابصار وعدد قليل من الشعوب المفتقرة بدل تلك العظمات السابقة والمجد الزاهر والغنى الوافر. أفلا يطرق الى الارض تأسفاً اذ يرى صور مدينة الفينيقيين التي كانت مركز تجارة العالم ومحط رحال الامال قد صارت نسياً منسياً ولم يبق فيها سوى شباك الصيادين . أفلا يرتعد لدى سطوة الحدثان حينما يرى أورشليم مدينة داود ومحل عظمة سليمان قد أصبحت قرية لا يذكر منها سوى المحلات التي لم يحفظها سوى يد القداسة . أفلا يضطرب مخافة من بوائق الزمان عند ما يرى انطاكية مدينة الله العظمى ذات الاسوار العالية والحصون المنيعة قد أضحت رمّة مضجعة في قبر الوبال . أفلا يرتجف لدى هيبة الايام اذ يرى مدينة تدمر التي كانت مبنية بالصفاح والعمد قد صارت اطلالاً دارسة ورسوماً بالية ولا عاد يشاهد فيها سوى عواميد هابطة وعضائد ساقطة وهيا كل مهدومة . أفلا يهجس كرباً اذ يعاين ان منبج ذات الصيت الرنان قد غدت كالسمك الذي لا صوت له . أفلا يقف محتاراً عند ما يصعد على رأس جبل سمعان ويرى ان جميع ما كان يحويه من المدن العظيمة والقرى الخصبة والمزارع الناضرة والاديرة العامرة والكنائس الرحبة قد صار خراباً تاماً ودماراً لا مزيد عليه بحيث لم يبق سوى بعض رسوم وأشكال . وأخيراً أفلا تسحقه صواعق الاشمئزاز عند ما يتأكد ان جميع هذا الخراب هو نتيجة الجهل والتوحش ؟ ؟ ؟

فبالاجمال نقول ان العلم هو الفاعل الاعظم لتثقيف العقل والمروّض الاكبر لجماح الطباع والسبب الاهم لتشييد التمدن والعمار اذ انه يرفع أفكار الانسان الى الحقائق السامية فلا تعود دائرة على مستحقرات الاشياء ويرسم في مراءة ذهنه صور الكائنات الدقيقة فلا يعود هاذئاً بخزعبلات الامور فتنطفيء من قلبه توقدات الحسد بنظره الى زوال المحسودات ويطرد

من صدره ضواغط الطمع بادرا كه حقيقة المطموعات . وتتلاشى من روحه بقية الاطوار المنتجة رجسة الخراب كالقساوة التي اغرقت مراكب مصر . والالتطاخ الذي هدم قصور آثور . والتغفل الذي كسف شمس فارس . والطمع الذي كسر صولجان مكدونية . والضغينة التي مزقت أحشاء فلسطين . والكبرياء التي ثلت عرش الروم . والخيانة التي قلبت ممالك الرومانيين . والبغض الذي شتت شمل لبنان وزعزع أركان دمشق . ثم تنمو فيه الصفات الداعية الى جلالة العمار كالشجاعة والنباهة والمحبة والاتضاع والدعة والاحسان والوفاء والامنية اذ انه يعود خبيراً بغوائل تلك الاطوار الطالحة وعليماً بنتائج هذه الصفات الصالحة .

فبدون تثقيف العقل اذن لا يتصف الانسان الا بصفة البهائم التي لا عقل لها ولا يمكن ان يُدعى متمدناً قط .

الدعامة الثالثة

تحسين العوائد والاخلاق

ان النظر الى عوائد البشر وأخلاقهم يعتبر كأعظم دليل على حالة تمدنهم ومقامه . فكلما كانت هذه العوائد والاخلاق جيدة كان تمدن أربابها جيداً وعالياً . وكلما كانت قبيحة كان قبيحاً ودنيئا .

ولذلك يجب على الشعب الداخل في دائرة التمدن ان يبذل الاعتناء كثيراً في تحسين عاداته وأخلاقه كيلا يكون تمدنه من باب الدعوى لا الحقيقة كما يُشاهد ذلك في كثير من الامم . ولما كانت العوائد والاخلاق تارة تلاحظ على الخصوص وأخرى على العموم وجب ان يكون كلامنا عليها خاصاً وعاماً

أولاً الخاص . ان المراد هنا هو النظر الى تحسين العادات والاخلاق الشخصية أي التي تخص الشخص المفرد . وهي اما انها طبيعية أو أدبية فالطبيعية تدعى ملكات والادبية عادات . وجميعها ترجع الى التطبع لأنه الاصل لجميع هذا الباب ولذلك يجب ان يكون المدار عليه فنقول ،

ان الانسان حينما يُولد على الارض يكون خالياً من جميع العوائد والاخلاق جيدة كانت او رديئة . ولا يُوجد فيه شيء سوى الاستعداد الى التطبع . فاذا كان استعداده جيداً مال الى اقتباس الجيد واذا كان رديّاً مال الى اقتباس الرديء فلا يوجد لتحسين العادات والاخلاق الشخصية أهم من اخضاع الاستعداد الانساني منذ نعومة الاظفار الى التطبع بالطبائع الحسنة والتخلق بالاخلاق الجيدة . على انه في هذه المدة من الحيوة تكون الطبيعة شديدة الخضوع لقبول التأثيرات والانفعالات ولذلك فكل عادة وجدت في الحداثة ولم تستدرك طبعت أثرها على الفطرة وكانت ملكة عند الكبر لا تسمح باستئصالها الا تحت مشاق التعب الزائد وهكذا كل خلق . وحتى حصل الانتقال الى سن البلوغ فصاعداً صار التطبع صعباً جداً على الطبيعة ولا يعود للملكة سلطان عليها بل تصير خاضعة لغلبة العادة التي ليس لازالتها صعوبة .

أما كيفية ذلك الاخضاع للاستعداد الانساني فهي تتمُّ بامالة الاميال عن التطبعات بالعوائد والاخلاق المنكرة والحاقها بالمقبولة . ولا يمكن التسليم بكون الشخص متمدناً طالما تكون عوائده وأخلاقه غير موافقة لما يقتضيه التمدن من التعود والتخلق .

فلا يتفق التمدن مع ملكة السكر لان ذاك يطلب تقوية أفعال العقل بتصحيح التصور واصلاح الحكم وتنشيط الذكر . وهذه تقتضي أضعاف الافعال العقلية بايقاع الخزل وافساد الاحكام والقاء الهذيان . ذاك يستلزم حسن الصفات كالاناسة واللطافة وعزة النفس . وهذه تستدعي قبح الاوصاف كالتوحش والكثافة والدناءة . ذاك يطلب الالتفات الى الاعمال والاشغال والنشاط وهذه تطلب البطالة والتواني والكسل ذاك يستميل العقول الى المحافظة على الصحة ورفع أسباب الامراض . وهذه تطرد كل قانون صحي وتفتح سبيلاً عظيماً لنهوض كل مرض عضال كالحدار والتيبس وسوء الهضم والاستحالات الآلية ونحو ذلك

ولا يتفق التمدن مع عادة النهم لان ذاك يطلب الاقتصار على كفاية الطبيعة طبق انسانيتها . وهذه تطلب تحميلها فوق طاقتها فتكسبها باخلاق البهيمة . ذاك يطلب

الترتيب في المعيشة حذراً من وثوب الاحتياج . وهذه تقتضي كثرة الانهماك فتكون داعية الى الحاجة

ولا يتفق التمدن مع ملكة الفجور لان ذاك يستلزم الطهارة والعفة وهذه تستوجب الدنس والشهوة . ذاك يلتمس الوداعة والتعقل . وهذه تبغي الشراسة والحمق . ذاك يطلب الاستحياء والادب . وهذه تقتضي الوقاحة والعهارة

ولا يتفق التمدن مع خلق الكذب لان ذاك يطلب الاستقامة والحقانية وهذا يقتضي الاعوجاج والتزوير . ذاك يستلزم الامانة والثقة وهذا يستدعي الخيانة والنكث ذاك يدعو الى النصيحة والتحريض وهذا يستميل الى الخديعة والغش . ذاك يجعل الانسان مكرماً محبوباً وهذا يصيره مهاناً مبغوضاً . ذاك ينهج لصاحبه طرق السعادة والغنى وهذا يطوّحه في وهاد النحس والفقر

ولا يتفق التمدن مع عادة النميمة لان ذاك ينادي بقبح الكشف عن الاعمال السرية للبشر وهذه تصرخ باعلانها لدى الافاق . ذاك يسدل ستار الخفاء على كل النقايص والعيوب وهذه مهتمة بخرق كل ستار . ذاك يفتح صدر الانسان لدخول الاسرار فيه وهذه تغلقه وتجعل صاحبها مجتنباً من جميع الناس وممقوتاً

ولا يتفق التمدن مع خلق الغضب لان ذاك يطلب الهدوّ والتأني في الامور وهذا يطلب الضوضاء والعجلة . ذاك يطلب ارضاء الناس واستمالتهم وهذا يستلزم اسخاطهم وتنفيرهم . ذاك يقتضي البشاشة والطلاقة وهذا ينتج الوجوم والقنوط . ذاك يجذب بركات الجماعة الى وجه صاحبه وهذا يقتبل اللعنات

ولا يتفق التمدن مع الجبانة لان ذاك يطلب الثبات والصبر على الاهوال والمصائب وهذه تطلب التقلقل لدى كل حادثة . ذاك يقتضي الاقدام على تشتيت المخاوف والمزعجات وهذه تقتضي الفرار من كل شيء ذاك يستوجب استصغار المستكبرات وهذه تتناول استكبار المستصغرات

فجميع هذه العادات والاخلاق الشخصية واشباهها مما لم يذكر لا يمكن اتفاقها مع قوانين التمدن ولذلك يجب استئصالها من الناس وتربيتهم على اضدادها

ولو دعى الامر الى صعوبة قصوى . وبهذا يقوم التحسين المطلوب هنا في الكلام الخاص .

ثانياً العام . ان كرور أزمنة الجهالة على بعض البشر وتقلبات الظروف ما بينهم قد أحدثت فيهم كثيراً من العوائد والاخلاق التي تنكر عليهم اذا دخلوا في نظام التمدن . ولذلك يجب أن يجتهدوا كثيراً في ازالتها ويستعيضوا عنها بما يناسب روح العصر

فلا يغتر أولئك المدعون بالتمدن اذا كانت بيوتهم مشحونة بالاثاث ال كالفضة والنحاس وأنواع الخزف والاقمشة ولم يوجد فيها كتاب أو صحفية يومية ولا أدنى وسيلة للعلم وانما يعتبرون متمدنين اذا كانوا يعلمون ان زينة العقل تفوق زينة المسكن ويتمسكون باهدابها كما يعلمون ان هذه نتيجة الاجيال المظلمة التي كانت تنطبق على الفخفخات والعظمات الفارغة وتلك نتيجة الجيل المتنوّر الذي لا يقبل مالا نفع فيه

ولا يعتد بهؤلاء المتظاهرين بالتمدن اذا كانت رؤوس نسائهم تتشعشع بانوار الاحجار الكريمة ذات الثمن الوافر والعديمة الثمرة ولم يكن في تلك الرؤوس أدنى شعاع للعقل والادب . بل يعتد بهم اذا رفعوا جميع تلك الظواهر الخيالية وأبقوها للنفقة على تعليم نسائهم وتهذيبهن . كما لا يعتبرون أصلا مهما ضيقوا أثوابهم وأطالوا خيزراناتهم وهرولوا مسرعين اذا لم يوسعوا أفكارهم و يمهلوا جماح أميالهم المنحرفة

ولا اعتبار لاولئك الذين ينفقون المبالغ الوافرة على تجهيز المآدب الفاخرة والولائم الحافلة في أيام المواسم والاعياد . ولا يدفعون فلساً واحدا لعمل الخير لكنهم يعتبرون اذا جعلوا ذلك الانفاق مخصوصاً للاعمال الخيرية وعلموا ان عظمات المآدب والولائم انما كانت معتبرة في هيا كل الوثنيين عند تقديم الضحايا لآلهتهم يوم الموسم أو العيد

ولا يعدون مع المتمدنين أولئك الذين يتسابقون مسرعين الى منازلهم بعضهم البعض في الايام المدعوة عندهم بالرسمية خابطين تحت شمس الصيف وغباره وخائضين في أمطار الشتاء وأوحاله . ولا يوجه أحد منهم خطوة واحدة الى فعل الخير . واذا

وُجد منهم من يقصد ذلك الفعل . سدّ الآخرون طريقه بحجارة الملامة كما يرجمونه بها لو تأخر في مسابقتهم الى قضاء تلك الرسوم الباطلة

ولا يقبل التمدّن اولئك الذين تثور في اعراسهم صياحات زغاريد النساء وصراخات تجويقات الرجال خاصة حينما تكون أنغام آلات الطرب داعيةً الى الهدوء والسكوت فهم يجمعون بين المتضادات اذ يتركون الآذان مصدوعة ومرتاحة معاً . فلا يشتمون رائحة التمدّن طالما لايزالون معتنقين هذه العادة القبيحة .

ولا ينخرط في سلك المتمدّنين كل اولئك الذين اذا دخلت المنية الى بيت نهضت ضوضاء الولاول وطارت صراخاتها الذريعة الى قبة السماء بحيث تقشعرّ الابدان انفعالاً منها و يستولي الكمود والانزعاج على كل سامعيها . ولكن قد يضمون الى عقد التمدن بشرط أن يبطلوا هذه العادة القبيحة و يعلموا أنها موروثة من أزمنة عرب الجاهلية الذين كانوا يكافون الطبيعة الانسانية بهذا الامر ما تستعمله الحيوانات . كما يعلمون انّ انسانيتهم بهذا المقدار ساقطة حتى أنها لم ترث من بقضت القبائل سوى تلك العادة المستقبحة وتركت كل ملاحمهم الجليلة نظير الكرم والنخوة والحماسة وحماية الجار واكرام الضيف وهلمَّ جراً

وهكذا لا يُدعى القوم متمدنين اذا ظلوا يجعلون الحزن شريعة ظالمة كثيرة الكلفة حتى انها لا تسمح قط لمن يدخل تحت لوائها أن يستعمل أقلّ شيء من لوازم الطبيعة الا بعد بضع سنين . فلا يستطيع المحزون أن يخفف عنه حرارة الصيف بلبس الثياب البيضاء ولو أفضى ذلك الى الاضرار بصحته . ولا يقدر على تنقية جسمه من الاوساخ وتنشيط وظيفة التبخير بذهابه الى الحمام ولو افترس القمل جلده وأهلكه الاستسقاء ولا يستطيع الخروج الى البساتين لاجل استنشاق الهواء النقي ولو تسرطن جميع دمه . ولا يؤذن له بسماع آلات الطرب أو أصوات الغناء ولو أوقعته الاكدار في داء « النورستانيا » . ولا يصوغ له أن يصنع في بيته شيئاً من المأكولات الطيبة اذا اشتهتها نفسه حذراً من قول الناس عنه انه قليل حسّ . ولكنهم قد يحسبون من أرباب التمدن متى علموا انّ الحزن شريعة تطاب عكس ماينسبون اليها وانه انفعال

كلما حدث في النفس لا يكفّ عن استنهاض ضده ايقاعاً لرد الفعل وكلما كان وقوع الفعل شديداً وسريعاً كان رده شديداً وسريعاً

وهيهات أن يحسبوا متمدنين كل اولئك الذين يشترعون اذلال النساء وتحقيرهنّ واهانتهنّ وضربهنّ أيضاً بناء على انّ هذا الجنس ساقط ولا يستحق أدنى اعتبار بحيث لا يعلمون انّ الامر بالخلاف وانّ الجنس النسائي جوهر لطيف للغاية وأهل لكل كرامة ومستحقّ كل الالتفات اليه . والطبيعة نفسها تدعو الى اكرامه ومداراته اذ انه الجزء الاهم في الانسانيـة والمساعد العظيم لقيام الجنس البشري والينبوع الاول لتغذية الحياة ومواساتها في زمن قصورها

ولا يحسب متمدناً ذلك الرجل الذي يزعم انّ الافراط في معاشرة النساء ومخالطتهنّ من واجبات التمدن غير عالم انّ كثرة التهافت على الامرأة تجعل الرجل ذليلاً لديها وكلما عزّ نفساً ارتفع عندها مقاماً

ولا يظهر سيماء التمدن على أولئك الذين عندما يتكلمون أو يتخاصمون يفغرون أفواههم ويرفعون أصواتهم الى درجة تمزيق أوتار حناجرهم حتى يكادوا يشاركون الجمل في عجعجته والثور في جعجعته والحمار في نهيقه . مع انّ غاية التمدن هي نزع كل سمة بهيمية عن الانسان

ولا تحسن ثياب التمدن على أولئك الذين ينزّلون الخرافات منزلة الحقائق وينذرون بها على الافاق غير عالمين انه لا يُوجد شيء يدنس تلك الثياب النقية ويلطخها نظير اعتناق الاكاذيب والاباطيل وأشاعتها . فهم تارة ينسبون الى بعض الحيوانات خاصيات لو أمكن وجودها لكان الانسان خليقاً بها وذلك كنبح الكلاب دلالة على حدوث مصيبة . ونعق البوم اشارة الى وقوع خراب . وهرب الطيور علامة على قدوم وباء . وتارة يتهمون الافلاك بما تفعله الظروف والاقدار إذ ينسبون اليها كل الحوادث التي تتم على الارض عموماً وخصوصاً . فيعطون الحرب للمريخ والسعد للمشتري والنحس لزحل والذكاء لعطارد وخفة الروح للزهرة والصقاعة للقمر وطبخ المعادن للشمس . هذا عدا أمور لا تعد ولا تحصى ينسبونها الى كلّ من

هذه الاجرام التي تقسم بذواتها أنها لاتعرفهم . ولم تطرح عليهم قط لا حرباً ولا سلاماً ولا سعداً ولا نحساً . وكذلك ماينسبونه الى العين من التأثيرات والى الاحلام من التفسيرات

فلا يمكن لاحد أن يحسن عوائده واخلاقه التمدنية الا اذا رفع من فكره الاعتقاد بمثل هذه الخرافات عالماً انها واصلة اليه من خرافات اليونانيين الذين كانت عباداتهم وطقوسهم تسمح لهم أن يعتقدوا بهذه الاضاليل

وبالاجمال نقول انه يوجد شوارد شتى مما يقتضيه مقام هذا الكلام العام قد عدلنا عن جمعها حباً في الاختصار ونختم سياق هذا الحديث قائلين :

انه لا يمكن للتمدن ان يقبل في نظامه أيَّ عادة قبيحة أو خلق رديء ولا يقدر أحد على الدخول تحت ألويته مالم يحسن عاداته وأخلاقه

الدعامة الرابعة

صحة المدينة

انّ أول شيء يستدل به على تمدن أمة ما أو توحشها هو النظر الى حالة مدينتها. فكلما كانت المدينة صحيحة كان التمدن صحيحاً وكلما كانت سقيمة كان سقيما

أما كيفية هذه الصحة المدنية فهي تقوم تحت جملة أحوال وأخصها ثلاث .

أولاً النظافة . انه لا مناص للمتمدنين من بذل مزيد الاعتناء والاجتهاد في تنظيف أسواقهم ومنازلهم تسديداً لطلب الطبيعة نفسها . لأنَّ المراد من ذلك ليس نوال الغاية الادبية فقط بل والغاية الطبيعية أيضاً وهي اراحة الطبيعة الحيوية مما يقلق نظامها ويزعج وظائفها . ولا يوجد خطب أشد تأثيراً على هذه الطبيعة من دخول المواد الغريبة عنها اليها لا سيما اذا كانت فاسدة . فكما انَّ بعض الجواهر المعدنية لغرابة تركيبها تزعزع أركان البناء العضوي للجهاز الحيواني ويسلب مجموع حياته متى دخل اليه . هكذا تفعل أيضاً الانبعاثات الفاسدة للاقذار والاوخام عند ما يحملها الهواء ويدفعها الى عضو التنفس حينما يتناولها الدم ويمرُّ بها الى مواقع التغذية. فكم تقاسي الطبيعة من الاضطرابات المرضية المميتة وكم تلتمس الانقاذ بلسان

حال الانزعاج الوظائفي عند ما يهاجمها مثل هذه المواد الغريبة . فهي السبب الاعظم لتهييج الحميات الخبيثة كأنواع التيفوس والتيفوئيد والسبب الاهم ايضاً لتمهيد طرق الوافدات الوبائية المهلكة كأنواع الطاعون والهواء الهندي « الكوليره »

وبالاجمال نقول انّ الغاية الوحيدة للطبيعة هي قبول ما يناسبها لقيام حياتها ودفع ما يستنزل عليها صاعقة الموت بمغايرته لها حتى ولو كان صادراً عن ذات فعلها. ألا ترى كيف انها تجتهد بطرد التراكيب الصديدية التابعة للالتهاب العضوي الى الخارج بواسطة النفث او الغائط او الاستطراق من المركز الانفعالي الى بعض جهات المحيط البدني حتى اذا لم يمكنها تتميم هذه العملية ودخل الصديد الفاسد الى التيار الدموي ألقى عليها رعدة الاضطراب بافساد جميع كتلة الدم وأماتها بعد نزاع شديد.

فاذا كانت الطبيعة لا تقبل ما يغرب عنها ولو كان آخذاً صدوره من ذات أجزائها لعدم نفعه لها فكيف تقبل ما يكون غريباً وأجنبياً معاً . وبما انّ الاقذار والاوساخ لها أشدّ الافعال السمية كما سبق . فلا يصوغ والحالة هذه تغافل أرباب التمدن عن ملاشاتها والاعتناء الوافر بحفظ النظافة العامة للاسواق والشوارع وعلى الخصوص للبيوت والمساكن فراراً من تلك التأثيرات الرديئة ومراعاة لحق المدينة . واننا اذا نظرنا الى العمل البديهي الذي تصنعه الحيوانات بتنظيف ذواتها كان لنا منها أفضل معلم على ضرر القذارة ووجوب النظافة وأفضل مثال يقتدي به كل عاقل اذ أنّ الحيوان لا يفعل الا ما ترشده الطبيعة اليه طلباً لما يصلح شأنه ودفعاً لما يضرّ به .

ثانياً تمهيد الشوارع والازقة. انه مما يستدلّ به أيضاً على الحالة التمدنية لاي قومٍ ما يلاحظ على تنظيم ما في بلدهم من الشوارع والازقة . فمن أهم الواجبات للداخلين في التمدن اذاً افراغ الهمة في تحسين هذه الشوارع وتنظيمها وتنظيفها. على انه لا يسمح لهم التمدن قط بترك الشوارع والازقة ضنكة معوجة رديئة التبليط والتخطيط بل يطلب منهم دائماً أن تكون مستقيمة عريضة ممهدة البلاط والخط وذلك لأنّ الشارع او الزقاق اذا كان ضنكاً يمنع سهولة تجدد الهواء ويعيق امتداد النور الى مخادع الناس أو حوانيتهم فيجعلهم مستعدين للآفات الليمفاوية والدرنية كالسرطان والخنازير والسل والاورام

الباردة والحدار وا كمداد البشرة ونحو ذلك . واذا كان معوجاً فانه يعرقل انطلاق خطوات الناس فتتعسر أرجلهم بعضها ببعض وتتلاطم صدورهم وتتقارع جباههم وحينئذٍ يكون السير في الزقاق عراكاً لا انتقالا . واذا كان وعراً غير ممهّد يصدع أقدام الماشين ويسبب سقطات البهائم تحت أحمالها الثقيلة فتتهشم حوافرها وتنكسر أرساغها الامر الذي ينافي ما تطلبه الشفقة على البهائم التي لا نطق لها لتشكو مصابها وتندب عذابها . هذا ما خلا المؤيدات التي يجدها الشتاء هناك لأن يصنع بحيرات من الاوحال والاطيان بحيث يصبح الناس محتاجين لقوارب يخوضون بها ولا يبقى سبيل لسلوك العميان .

ثالثاً ترميم الابنية . ومما يؤخذ للدلالة على تمدن المدينة أو خشونتها هو ملاحظة أمر أبنيتها ولذلك يقتضي لقاصدي التمدن وفور الاهتمام في اصلاح شأن الابنية والمشيدات . وهذا يتوقف على فحصها كل مدة لمعرفة حالة متانتها وثباتها فراراً من حدوث الاخطار لأنه متى ترك البناء جسراً لعبور السنين بدون ملاحظة أمره أحدثت فيه طولة الزمان تقلقلاً وتوهناً فيعود خطر هبوطه قريباً وخاصة في أيام الشتاء عند ما تصبح عرضة لصدم الرياح وهطول الامطار فأن سقوطه اذ ذاك يكون عظيماً ولما كان تعرّض الناس الى اقتبال هذا الخطر كثيراً وجب على جميعهم تواصل التدقيق في حالة الابنية من الداخل والخارج لكي يمنعوا بذلك أخطاراً عظيمة تتهدّدهم على ممرّ الدقائق ويدخلوا الى منازلهم بسلام آمنين .

الدعامة الخامسة

المحبة

هوذا رنين صوت الكون العالي يدوي في أعماق العالم العقلي ليستفزّ سكون الارواح الفكرية هناك الى الطيران بأجنحة التخيلات السرية على دوح الوجود العام حيثما يمكننا اختطاف تصورات تدعو القوة الحاكمة الى أن نحكم بأنّ الناموس الذي جعلته حكمة العناية ضابطاً لمجموع نظام الخليقة هو المحبة نفسها التي يختلف اسمها باختلاف موقعها .

فها هي المحبّة قد صعدت على منبر ذلك النظام العظيم وشرعت تنادي بصوت الغوامض قائلة: اسمعي أيتها السماء فأتكلم وانصتي أيتها الارض أنا التي قد جمعت شمل الذرات الاولية فكانت أجراماً تضيء في قبة السماء فلماذا دعيت التصاقاً؟ أنا التي قد وثقت هذه الاجرام برباط الانضمام فكانت أفلاكاً تدور حول بعضها البعض فلماذا سميت تجاذباً؟ أنا التي قد ألفت بين العناصر المختلفة فكانت ممالكٍ تزهو بمجد الارتباط فلماذا لقبت تماسكاً؟. انا التي قد فتحت في أجناس الحياة مسالك الميل الى ان تحافظ على أنواعها فلماذا دعيت تناسلاً؟. انا التي جمعت أشتات البشر الى هيئة واحدة فكانوا متعاضدين في حروب الحوادث فلماذا سميت اعتصاباً؟. أنا التي قد قفلت مصارع البحر وكسرت كبرياء لججه فلماذا أُدعي جزراً ومداً؟. أنا التي حيثما نزلت عمرت، وحيثما رحلت، خرّبت فلماذا لا يكترث بأمري؟. اما علمت اني أنا التي لاتغنني الطبيعة عني ولو طاردتني فلتات الاقدار وتقف في وجهي؟ فلماذا ينكرني البعض؟. أنا التي قد اتخذني التمدن دعامة قوية له، و بدوني لا يثبت له بناء، فهل يهدمني الا كلّ متوحش؟. ها قد عظمت دعوى المحبة وتفاقمت الى الغاية، لأنها قد جعلت لنفسها ربط العالم بأسره وجعلت جميع الاسماء المستعملة في التعبير عن القوة المؤلفة مترادفة على معناها، حتى كأنها تود ان تشرح بذاتها معنى تلك المحبة الجوهرية التي قد أنشأها الباري بذاته أزلياً وأصدرها كلمةً لتدبير الاكوان التي بها كانت و بغيرها لم يكن شيء مما كوّن.

مهلاً مهلاً ماعاد يقدر هذا الكلام على اتمام سيره فقد حاولت الاستطراق اليه أشواط المنتقدين وها غبار أغراضهم بدأ يتصاعد عن بعدٍ وكلٌّ منهم فاغراً تون فاه لقذف دخان التفنيد. فالبعض يعبسون وجوههم و يقولون: هو ذا يستنتج من هنا الوهية حركت الموجودات. وآخرون يرفعون أنوفهم و يقولون: ها ها انما يستفاد من هذا الكلام كون الكلمة ممتزجة مادياً في عموم الموجودات. وغيرهم يحملقون بأعينهم و يصيحون: هذا تعليم الماديين نفسه. هذا فضلاً عمن سيحرّك عثنون لحيته و يقول: كيف يسوغ لمن لم يسلم على عتبة مدرسة ان يتكلم في اللاهوتيات بشيء لم يسعه ادراكه؟

وعلى أيّ قاعدة أثبت حكم القوة الفاعلة للقوة المنفعلة وضعضع الروحيات بالماديات؟ ثمّ يشهر أبناء المدارس سيوف الشتائم مجردة من أغماد شهادات مزوّرة ولكن ليأخذ حذره من انتقام الشبل عن الاسد. أما لسان الصواب فيقول لذوي الدقة في التأمل بصراحةٍ: انّ المراد من دعوى المحبة العامة ليس ان تكون هي نفس الذات الالهية منبثة في جزئيات الخليقة بل انها هي القوة التي جعلها الله لتحريك الخلائق وتدبير الكائنات تحت أشكال مختلفة تدعى الناموس العام أو الناموس الطبيعي واذ ذاك فيكون المراد هو الاشارة الى أنّ الانسان اذا كان يحب نفسه فهو ملزم تبعاً لهذه المحبة ان يحبّ شبيهه بالانسانية تسديداً لحق كماله الطبيعي وذلك اقتداءً بخالقه الذي عند ما رأى جوهره ملء الكمال أحبّ ذاته بديهياً وبمحبته هذه خلق العالم محبوباً منه وجعل يدبّر هيئة نظامه بما لم تدركه أفكار الطبيعيين فاعطوا الكل حركة اسما مبهما. فينتج اذن انه بالمحبة قد قام العالم جميعه. وبالمحبة تتحرّك جميع الاشياء. وبالمحبة يثبت كل من المخلوقات على حدته. وبالمحبة يحافظ الكل على أجزائه. وهكذا فبدون المحبة بين البشر المطبوعين على صورة الله لا يمكن قيام نظامهم الاجتماعي على واجباته اذ أنّ المحبة هي القوة الوحيدة للتأليف بين أفرادهم المتفرقة على وجه الارض والضابط الاول لانظام عالم تمدنهم بخلاف البغض الذي ينزل منزلة القوة الدافعة بين الاجسام فيبعدهم عن بعضهم البعض ويشتت شمل هيئتهم ويسلبهم راحة الحياة المحبوبة منهم جداً.

فلا يخطيء من يسمي المحبة آلهة الهيئة الاجتماعية بناء على ما يصدر عنها من المفاعيل الغريبة والتأثيرات العجيبة بين البشر. فلو أقيم لها وثن في هيكل الذهن لكان على شكل غادة كلها جميلة وليس فيها عيب اذ تجمع من الصفات ما يتقرر في هذه الابيات.

على وجهها نور الصلاح يلوح ... ومن ثغرها عطر الفلاح يروح
وبرق الهدى من لحظها متألق ... ومبسمها بالطيّبات يفوح
وفي خدّها ورد المسرة ينجلي ... لنا وبه قطر الهناء صريح

وقدّ لهـا يهتزّ عن طربٍ وها — على غصنه طير السـلام صدوح
رعى الله قلباً فيه قد صاح صوتها — وقاتل قلباً فيـه ليس يصيح
هي الاصل في الاكوان فهي مثابةٌ — لـكل قلوب العـالمين تريح
بها تحسن الدنيا بها تفضل الورى — بهـا كل شيء صالحٌ ومليح
لدى وجهها تجثو القبائل كلهـا — وكلٌّ سـجود لا يعـاب صحيح
بها سائر الاجيال غنت وقد أتى — لهـا من جميع المنذرين مديح
هي الـكوكب السيار في فلك الدّنى — به السعد يغدو والنحوس تروح

فلا يسمح التمدن بالدخول تحت لوائه لاحد ما لم ينصب في هيكل قلبه تمثال المحبة مقدّماً له بخور الافـكار الطيبة والعواطف الحلوة وصارخاً بلسان الروح هكذا.

هاهنا يجلس التمدن على عرش الـكمال فتتخرّق أمامه بيارق الخشونة ويمزّق التوحش ثوبه . هنا تخطب بلابل السكون على منبر شجر السـلام فيصمت صياح القلق ويخفي الاضطراب صوته . هنا ترنُّ صنوج الافراح وتضرب طبول البشائر فتخرس صراخات الاكدار ويتلاشى دويّ المصائب . هنا يشرق صباح الاغضاء ويتلألأ شعاع التغاضي فيغور ديجور الضغينة وتنجاب ظلمة الحقد. هنا يتبدّد دخان الانتقام وينقشع ضباب غضب وينتشر أثير الصفح ويسطع ضوء الرضاء . هنا تنفطر صخور القساوة وتدكّ جبال الجفاء فيجري سلسبيل الشفقة وتتمهد سهول الوفاء . هنا يفترُّ ثغر الابتسام ويضحك محيّا الندى فيجم جبين الاكتئاب وتدمع عين الشفقة هنا يفرع غرس التمني . هنا يثمر غصن الرجاء . هنا تدور الهيئة على مركز التمـام والـكمال . وأخيراً هنا ينثلُّ عرش العبودية وترفع الحرية اعلامها .

فاذا كان يوجد للمحبة أثمار طيبة المخبر وشهية المنظر كهذه . كيف لا تحسب اذاً دعامة راسخة للتمدن ? نعم انّ التمدن لا يستغني عن هذه الدعامة أصلاً ولا يمكن أن يشاد بنيانه بدونها كما لا يمكن وقوف قناطر الهيأة الاجتماعية الاّ عليه . وهبك ذلك فلا بدّ من وجود حدّ للمحبة لا تتجاوزه لئلاّ تجانس ضدها بعمل الردى . على انه ولو كانت المحبة تحسب روح الانتظام البشري وحياته فمع هـذا يوجد

لافراطها كثيرمن النتائج المضرة وذلك كمعارضة السلام مثلاً لمشروعات الحرب حيثما تكون هذه المشروعات واجبة لاصلاح حالة أدبية . وكالمعاملة بالشفقة اذ تكون الصرامة داعية. وكوضع الاغضاء والصفح موضع الانتقام الذي ربما يوجد لازماً للتعليم . وكالاسفار عن الرضاء بينما تكون لوائح الغضب مطلوبة للتهديد . هذا عدا ماينتج عن افراط المحبة الخصوصية في قلب شخص خصوصي لمحبوب ما حيثما تبلغ درجة العشق الذي ولو كان أصلاً تتفرع عنه جملة غصون صالحة لتمدن صاحبه كتلطيف الروح وتهذيب الطبع وترفيع العقل والذوق وحسن المعاشرة . فمع ذلك اذا بلغ أشده يترك وراءه جملة آفات تنكد عيش المبتلى به وتسلبه كل راحته كقهر الحرية الذاتية مثلاً والاضطرار الى البطالة واهانة الدراهم التي يدعوها البعض آله الحياة وتسليم النفس الى تأثير الانفعالات الشتى الشاقة ومايعقبها . كالحزن فالفرح ، والخوف فالجراءة ، والتعب فالراحة . هذا ماخلا التأثيرات الكثيرة التي تفترسه على ممرّ الاوقات . فلا يبرح قلبه في حضرة المعشوق هدفاً لنبال العيون وموقداً لجمرات الخدود وموقعاً لرمح القوام وقدراً لغليان ماء المحيا . ولا تزال روحه في الغيبة أتوناً لارتفاع لهيب الاشواق والاتواق . ومحلاً لتناثر غرر الافكار والتصورات . وميداناً لمسابقة خيول الاميال والعواطف ، فيحيي الليل سهراً وأرقاً ويقضي النهار تعباً وقلقاً اذ يرى ذاته ضارباً في أودية الوحدة والانفراد حيثما يشاهد قلبه طائراً على أجنحة شياطين الوساوس والاوهام خائضاً في بحور الآمال والمطامع . وهكذا يرى العالم بأسره كأنه مسرح للغرام ويخال الكائنات جميعها تصور لديه ملعوب الهوى وتتنفس بامارته وخواطره . فيظن الشمس ممثلة لديه أشعة جمال الحبيب . ويحسب القمر رسم وجهه مطبوعاً في مرآة الفلك . ويخال الاهلة قلامات من ظفره . ويزعم الكواكب أعيناً ترشق نظرات الرقيب . ويفترض الجبال منطوية على معنى أثقال الجوى او يظنها أوتاداً لتمكين خيمة السماء على عالم الهوى . ويرى السحاب سارقاً دموعه والضباب ممثلاً ولوعه . لا بل يرى طوفان نوح كعبرته ونار الخليل كزفرته . ويتخذ الريح رسولاً لتبليغ الاشواق . ويرى الماء مقلداً له أنين العشاق . ويعاين الاغصان مترنحة بأعطاف المحبوب والاطيار شاكية لوعة فراقه .

والازهار نافخة بعطر نفثاته . والغزلان تغزل بنظراته وتفك طلاسم لفتاته ونفراته . وهاك هذا القصيد شرحاً للعشق العتيد .

ماذا ترى في العشق ماذا تزعمُ يا أيها الصب الكئيب المغرمُ
هل فيه غير المؤلمات فدونه مقل تسيل وأكبد تتضرمُ
اني أضعتُ العمر في سوق الهوى بخساً ولم أربح سوى ما يؤلمُ
كم ليلةٍ قضيتها وظبي الجوى تدمي الحشى فيسيلُ من عيني الدمُ
وكأنَّ صوت خفوق قلبي مزعج صمتَ الظلام فيدلهمُّ ويدهمُ
اصبو الى برق الربوع اذا بدا واضجُّ مالمعت لديَّ الانجمُ
ابكي لدى خطرات كلّ تذكرٍ والافق يعبسُ والكواكب تبسمُ
والليل بحرٌ هاج في عمق السما فغدا به زبد المجرّة ينجمُ
والشرق يلقي الشهب في جوف الدجى والغربُ يبتلعُ الجميع ويهضمُ
وأنا أحيرُ كأنني صبٌّ وفي دوح الحشا طير الهوى يترنمُ
في كلّ جارحةٍ تدبُّ صبابةٌ وبكلّ عضوٍ للغرام بدا فمُ
ياأيها الحبُّ الذي تخفى لدى أصواته كلُّ الحواسّ وتبلمُ
كم راح يخبط فيك ياوادي البكا قلبٌ وكم سحقت بسبلك أعظم
ما أنت الاّ دولةٌ غزت الورى وبظلمها كلّ امرء يتظلم
أيُّ السعادة في الغرام لربه وسحابة البلوى عليه تغيمُ
فحياته مسلوبةٌ ودموعه مسكوبةٌ وفؤاده متكلمُ
أبروق ربَّ الحبّ نقطةُ لذَّةٍ وعليه بحر المؤلمات عرمرمُ
اني أرى وقت النعيم كخالبٍ يمضي وأوقات الشقاء تخيّمُ
ياويح من للحبّ عرَّض نفسه جهلاً فسوف يذوب فيه ويهدمُ
سلني أياباغي الهوى أخبرك عن أحواله فأنا به متقدّمُ
اني علقت بذات حسنٍ ما بدت الاّ وعنها البدر راح يترجمُ
خودٌ اذا نضت اللثام بدا لنا قمرٌ بليلٍ ذوائبٍ متلثمُ

قد كلمت أحشاي بالمقل التي ... فيها الجمال مسلمٌ ومكلمُ

مقلٌ لعيني نرجسٌ أو أكؤس ... لكن لقلبيَ أسيفٌ او أسهمُ

من وجهها نور الحياة لأعيني ... يجلى ونار فيَّ لقلبيَ تضرمُ

لم ألقَ نفسي مفرداً أو مصحباً ... الاّ وشوقي نحوها مستلزم

شوقٌ يمثلها لطرفي كلما ... غابت فينعم حينما لا ينعم

فهي النسيم تطيب كيف سرت ولا ... عينٌ ترى خطراتها اذ تقدمُ

ماذا على عيني فواديَ قد جنى ... حتى تعاقبهُ عقاباً يعظمُ

طمعت عليه خيال غالبة النهى ... فأحاطه لهبٌ ودمعٌ يسجمُ

فأنا بروح الحب مسكونٌ فلـ ... ـمَ للنار أو للماء رحت أسلمُ

من لي بها غيداء فوق جبينها ... نورُ المحاسن والتعقل يرسمُ

وبسيف صاعقة الهوى ألحاظها ... قامت تحاربني فاني أسلمُ

أنا لست أنعم في الحيوة ولا أرى ... حظاً سوى معها ففيها أنعمُ

وكذاك لا أهنا بكلّ تكلمٍ ... ان لم أكن معها بها أتكلمُ

فاذا نأت عني أعود على لظى ... وأروح في خرسٍ وعقلي يعقمُ

أترقب الطرقات علّي ألتقي ... معها وان حان التلاقي أبكمُ

ترنو اليّ كذاك أرنو نحوها ... والوجد في نظراتنا متبسمُ

ونصافح الايدي وألسنة الهوى ... تروي أحاديث اللقا وتترجمُ

تمضي فأرقب خطوها ونواظري ... تجثو لدى أقدامها اذ تقدمُ

وأعود في كبد تذوب ومقلةٍ ... عبرى وما عندي لسانٌ او فمُ

أحيي الدجى وأنا أحنُّ الى غدٍ ... وكذا يجيء غدٌ وعمري يصرمُ

يا أيها الغد كم غليت دمي على ... نار الرجا والى متى أتنيمُ

ولكم أحاطت بي تباريح الجوى ... وغداً يساعدها القضاء المبرمُ

فهرعت نحو الروض معدوم القوى ... أبكي وأفواه الازاهر تبسم

أترقب البلوى وقلبي راقبٌ ... عدداً من الآمال لا يترقمُ

قلبٌ به استهوى الهوى عنفاً الى ... وادي العنا فغدا يهيم ويلطمُ

وهاك هذه الابيات الاخر تبياناً لما ينجم عن الهوى وما يعانيه أخو الجوى :

الى م ذوات الخدر يجذبن أميالي ... وحتى م أهوي من تدافع آمالي

عيون المهى بالله كفي فلم تذر ... لكنَّ بقلبي موقعاً ربة الخال

ويا ظبيات الانس بعداً عن الذي ... يحب التي من حبه قلبها خالي

صريعٌ بألحاظ التي هدرت دمي ... فلا حظَّ لي منكن قط باقبال

مهفهفة تدنو الغصون لقدّها ... ويعنو لسامي وجهها القمر العالي

ولما تلاقينا معاً بعد هجعة ... من البين أورت في الحشا كلَّ تشعال

لبثنا وكل مطرقٌ دهشة اللقا ... وصوت خفوق القلب مستنطق البال

وما بيننا الاشواق تلعب في الخفا ... وتعرب عن حال الهوى السن الحال

يودُّ التقاء العين بالعين شوقنا ... ويمنعه دمع لأعيننا مالي

فوا عجباً من عاشقٍ رغب اللقا ... ومذ ناله لم يغتنم غير بلبال

ولكنني لماً تنهدت حسرةً ... وحاولت اطلاقي لتيار أقوال

تحرَّك في أحشائها ساكن الولا ... فألقت عليَّ نظرة تنعش البال

وقالت بصوتٍ أرجفته يد الهوى ... ولفظٍ كدرٍّ زان مبسمها الحالي

لك الله من صبٍّ حوى الصبر كله ... فليتك لي أبقيت وزن مثقال

فليس يليق الصبر الا بمغرم ... الى غير ما يهواه ليس بميال

اقلت الهوى عند السوى فلك الهنا ... ولو مضني فالقصد بسطك بالي

فقلت يمين الله لم أذكر السوى ... وحسبك تبريراً شواهد أفعالي

انا لست ممَّن ينشيء الهجر والقلى ... ولكنما أنت المقيلة إيصالي

غزوت جميع العقل منّي والقوى ... فلم يبقَ لي نطقٌ لاشرح أحوالي

فقد سكتت دون الهوى ألسن النهى ... كما حطَّ عن ادراكه الركن العالي

أراك فيعروني جمودٌ وبهتةٌ ... ولا عجب فالسحر في وجهك العالي

على عدد الانفاس ذكرك في فمي ... وشخصك في قلبي وعهدك في بالي

أبات الليالي والشؤون سوا كب على ما أقاسي من شجون وأهوال
على فرط أتواقي على عظم لوعتي على طول اشواقي على سوء اقبالي
كذا يحكم العشق الظلوم بأهله ويفتنهم فليحذر الرجل الخالي

فينبغي استعمال المحبة اذاً على قدر الواجب وحسب الظروف التي تدعو اليها بدون زيادة ولا نقصان. أما ترى كيف ان الرئتين اللتين هما عضوا التنفس لا يتناولان من الهواء الذي به تقوم الحياة الا ما يكفي لقيام هذه الحياة وما لا يؤثر عليهما ضرراً بحيث لو عرضتا باجمعهما اليه لفتك بهما و بكل الاعضاء عموماً. فلمنع هذا الفتك الشديد تحفظتا منه ضمن حجاب متين وأخذتا تفتكان به رويداً رويداً.

فهكذا كل انسان يجب عليه اعتناق المحبة عامة وخاصة وتحريكها حسب الاقتضاء بدون تسليم ذاته لجميع قواها حذراً من فتكها به وتمزيقها جلباب راحته. و بذلك تقوم هذه الدعامة الخامسة للتمدن أو السلك الذي به تنضم فرائد البشر الى بعضهن البعض.

و بعد ان ختم الفيلسوف مقالته هذه أثبت عينيه في الارض قايلاً كأنه يقصد اراحة فمه من كثرة التكلم وجعل يخط في الثرى. ثمَّ نظر الى القائد الذي كانت سحنته مرآة ترتسم عليها علامات صغيه وارتياح نفسه. وقال له: هاك دعائم التمدن. فاذا كان الانسان قد خلق كاملاً في الانسانية حاملاً صورة خالقه ومثاله. لا يكون عندنا شك اذ ذاك بكون هذه الدعائم مرتكزة في قلبه طبيعياً حاملة اسم الناموس الطبيعي حسب تعاليم الايتيكا (الفلسفة الادبية) ولا يعود لنا ريب بكون تقلبات الظروف وكرور الازمان قد أقلقت تلك الدعائم وأفسدت ذلك الناموس. و بناء عليه لا يكون عسراً تثبيت قلقلة الثابت واصلاح فساد الصالح. ولا يحتاج هذا الامر الى مضي أجيال وقرون. فتنحنح القائد ونظر الى الفيلسوف بدعة وقال له:

— انَّ جميع ما شرحته عن التمدن و كيفية أصوله وواجباته اعلمه جيداً. وطالما اتعبت ذاتي في نشره بين الافاق ورفع رايته ومع ذلك أشكر فضلك على توضيحك اياه لي. ولكنني لا ازال أرى انتشاره بين شعوب مملكة العبودية عسراً وشاقاً لي

الغاية ولو كانت دعائمه مرتكزة على قلب الانسان الطبيعي . وأمر لا يقبل الجدال هو كون الفساد اذا أخذ سعته في محل ما ومكن ذاته خاصة تحت مجرى سنين كثيرة فلا يعود اصلاحه الا ضرباً من العبث : كيف تصطلح الخمر اذا صارت خلاً ؟ كيف يحيي العضو اذا تغنغر (أي أصابته الميتوتة) ؟ كيف يرجع الحديد اذا صار صدأ .

— ان الخمر تصطلح باقتلاع الاستحالة الخليَّة منها بواسطة شيء من القلويات . ويحيي العضو المتغنغر بارسال المنبهات والمنقيات اليه كاملاح النوشادر والكلس . ويرجع الحديد بتصعيد العنصر الهوائي منه .

وبينما كان الفيلسوف يجاوب القائد كيماوياً . لمع من بعد جمهور يتسرَّب الى جهة المحفل النوراني . وهو يتشكل بكتلته ويسرع تارة ويبطؤ أخرى حسب أهواء عوارض الشجر . وكان يأتي منه صوت كصليل الحديد ولم يزل يقرب حتى نفذ في المسرح الملوكي واستقبل بوجوهه طفحات الاشعة حيثما توقف عن التقرب . وعند ماجلت فيه طرفي وجدته مركباً من تسعة أشخاص مقيدين من أرجلهم بسلسلة حديدية يجرُّها زنجيَّان من هنا ومن هنا وكان وراؤها أناس لم أعلم ما شأنهم . ونظرت رجلاً يتقدم الجميع وهو يعجل بخطواته كمن هو سائر بمهمة

ثمَّ رأيت هذا المتقدم قد انفرد عن الجمهور وسار يطلب جهة العرشين واذ وصل سجد على ركبتيه خطفاً . ثمَّ نهض واحنى هامته بوقار ويداه ممددتان على جنبيه . فامعنت النظر فيه واذا هو وزير محبة السلام . واذ رآه الملك قال له . هؤلاء جمهور المردة . فامال الوزير رأسه واجاب بصوت المنتصر : نعم .

— حل وثاقهم واجعلهم أمامي صفاً . فنكص الوزير الى الوراء ثمَّ التفت للزنجيين وأشار اليهما بحل الوثاق ففعلا وبينما كان الصف يتركب والاشخاص اللاحقون يبعدون الى الخلف انحدر القائد والفيلسوف وجلسا حذاء عرش المليكة .

الفصل السادس

فؤاد الشر

أما أنا فرأيت المحل الذي أشغله لم يعد مناسباً لانظر واسمع كلّ شيء لكون نظري ماعاد يحيط بكل ما أمامه من الاشباح . واذناي صارتا تعجزان عن ايفاء حق السمع لما استجدّ من الضوضاء فتركت هذا المحل واطلقت خطوات التجسس حتى بلغت الجمهور المحتفل وانخرطت في سلك الاشخاص اللاحقين من حيث لم يشعروا بقدومي

فرأيت الاسرى المصفدين في الاغلال قد وقفوا صفاً منتظماً ازاء العرشين . والقائد والفيلسوف لم يزالا جالسين حذاء الملكة يخاطبانها بحديث لم أسمعه. ووزير محبة السلام واقفاً بقرب العرش الملوكي وعلى وجهه لائحة عبوسة التفكر العميق .وكان الملك يرسل نظراته لفحص الجمهور و وجهه مغشى بسحب الغضب . وما ساد السكوت برهة حتى التفتت الملكة الى الملك وقالت له بصوت لطيف

— قد استصوب الفيلسوف والقائد ما تناجينا به منذ هنيهة في كيفية محاكمة هؤلاء الاسرى .

— فليذهب القائد اذاً وليحضر الاشخاص الذين عيناهم الى هذا المكان

فما أتمّ الملك كلامه الاورأيت القائد قد وثب وثوب الجواد وطلب موقف الاجناد . واذ أسدل السكوت ستاره ونشر الهدوّ شراعه . أخذت أحدّق طرفي بأولئك الأسرى وأنتقد كلا منهم وأنا بين الارتياع والتعجب . ووقعت في بحران التكذيب والتصديق . فكان الشخص الذي هومقدام الجوق رجلا حليف الشيخوخة قد امتصت الايام ماء وجهه المصفوع بكفي الزجر والانتقام . وحرثت السنون سهلة جبينه . وندف الزمان على لحيته قطن الشيب . وعاد لايقوى على نصب قامته من ثقل الحوادث المتراكمة على ظهره . وكأنّ حرارة أعضائه قد تجمعت في حدقتيه اللتين

كانتا تنثران شرراً ودخاناً . أما رأسه فكان متوجاً باكليل عتيق الزي قد نخره صدأ القدمية . ورأيت على صدره لوحاً فيه : (هذا ملك العبودية)

أما الشخص الاول بعد ذاك المقدام فكان رجلاً ضخم الجثة . غليظ العنق . مفرطح الرأس والجبهة . أفطس الانف ثخين الشعر غليظ الشفتين . وكانت أرواح التبسم البهيمي تتراقص على وجهه . وضباب الجمود الحيواني مخيمة على عينيه . ورأيت على صدره لوحاً فيه : (هذا قائد الجهل)

أما الشخص الثاني فمع أنَّ منظره جميلاً الا انه ما كان يخلو من جملة أطوار لا تلذُّ الناظر . فقد كانت سعة جبينه مضنوكة بغضون العبوسة . و بياضه مشوباً بظلمة الشكاسة . وكان أنفه الاقنى مرتفعاً ومحسوراً يشير الى ما في نفسه من الغطرسة . وحواجبه المقرونة مزورّةً ازورار غضب وسخط . وكانت عيناه السوداوان مبرقعتين بنظر المحتقر والمستصغر . وفمه الاقاحي كان يفترّ بابتسام العجب والتيه . وعلى صدره لوح مكتوب فيه (هذا قائد الكبرياء)

ياقاتل الله الجمال فأنه ما زال يصحب باخلاً متكبرا

أما الشخص الثالث فقد كان رجلاً تعجز عن تشخيص أمارات وجهه دقائق الفراسة . فعيناه الزرقاوان كانتا دائمتي التحديق حتى انهما اذا نظرتا الى شيء فكأنهما تكادان تطيران اليه . وكان وجهه العابس يبان كأنه مصاب بالاستسقاء لما فيه من انتفاخ الرياء . وكانت جوارح بلبال التفكر حائمة على جوانحه . وهمهمة بكاء الطفل ما كانت تبارح شفتيه . هذا عدا أهبة الهجوم التي لم تكن مفارقة عموم هيئته الضخمة . وعلى صدره لوح فيه . (هذا قائد الحسد والطمع .)

أما الشخص الرابع فقد كان رجلاً كهلاً وعلى رأسه عمامة قد مزقتها مخالب الادهار وغيرت ألوانها صباغات الاقذار . وعلى بدنه ثوب أنكرت نسيجه جميع الاقمشة لما أودعت فيه الاوساخ من الزركشه فانه شبعان من الدسم وريان من الوخم . و يعلو هذا الثوب وشاح قد توشح بالغثة ونهشت أقطاره أنياب العثة . فلا يحصى الا مع الاحلاس ولا يعتبر الا اعتبار الادران والادناس . أما وجه هذا الرجل

فقد كان بيضوياً ومشهده رضياً . ونظره لا يفتر وقفاً على ما يلائمه ، وقوف شحيح ضاع في التراب خاتمه . ويداه قد كانتا منقبضتين كأنهما تقبضان على ذهب ولجين . وهما مموهتان بالاوزار ، وملطختان بالاقذار . وعلى صدره لوح فيه . (هذا قائد البخل .)

رأى الصيف مكتوباً على باب داره   فصحفه ضيفاً فقام الى السيف
فقلنا له خبراً فظن بأننا   نقول له خبزاً فمات من الخوف

أما الشخص الخامس ، فقد كان رجلا ذا طلعة صفراء ، وحلة سوداء ، وأسنان مكزوزة ، وأصداغ مهوزة . وكانت جبهته تسبح بالكدر وأعينه تنثر الشرر ، وكأنه مشمول بهم عظيم ، ومأخوذ بغم أليم . وعلى صدره لوح (فيه هذا قائد الضغينة)

أما الشخص السادس ، فقد كان انساناً صغير الرأس متطاوله كبير الفم فاغره . ظاهر الشدق قصير القامة . وكان على صدره لوح مكتوب فيه (هذا قائد النميمة)

أما الشخص السابع ، فقد كان رجلا ذا أعين صغيرة التناسب ، كروية الشكل ، مضغوطة القزحية ، متجاوزة حد البروز . وذاوجه متطاول مبطن ببشرة كثيفة مدلهمة ، يعلوه أنف كالهرم المنبسط . ذو جناح منفرجة ، وقمة كقطعة جلود ، وعلى صدره لوح مكتوب فيه (هذا قائد الكذب والنفاق)

أما الرجل الثامن ، فقد كان حامل لواء الخيانة حسبما هو في لوحه مسطور . وكانت ملامحه — والعياذ بالله — ملامح الخائنين .

وكل من هؤلاء الاشخاص ، كان مترديا بزي خاص . فهذا سابح في ثياب عريضة . وذا محشور في ضيقة الملبوس . وذاك يعرج على الركبتين . وهلم جرا حتى اني لم أشاهد شبها بين الواحد والآخر .

ثم بعد هجعة من الوقت رأيت القائد مقبلا وثمانية أشخاص يهرعون وراءه . ولم يزالوا حتى انتصبوا أمام العرشين وخروا ساجدين لدى العظمة الملوكانية حيثما فصلوا بين المحتلين . وغب فترة ألقى الملك عينيه على القائد وقال له :

— أهؤلاء هم المعينون ؟ ؟ — نعم . وأحنى رأسه فاحنى الجميع رؤوسهم

— دع كلا منهم ينتصب أمام خصمه للشروع بالمحاكمة .

فأوعز القائد الى المعينين بما أمر الملك فذهب كلٌّ ووقف حيث الاشارة .

أقول: واذ أثبت نظري على هذا السرب الجديد رأيت كلاً مكللاً بالغار واسمه مرسوماً على جبهته بأحرف من نار . فكان الاول يسمى العلم . والثاني الاتضاع . والثالث الرضاء والقناعة . والرابع الكرم . والخامس الصفح . والسادس الكتمان . والسابع الصدق والحق . والثامن الامن . وجميعهم كانوا متردين بزيٍّ واحد .

فما لبث السكوت فترة حتى صرخت الملكة بصوت عال قائلةً : — تعال يا أيها الفيلسوف . فنهض الفيلسوف اليها ومثل لديها وقال : — آمري العبد .

— اصعد على قمة هذه الصخرة واشرع بالخطاب علناً وليرنّ صوتك في جميع المسرح .

ثم أمالت الملكة وجهها وقالت : أما أنت ياقائد جيش التمدن فتمنطق بسلاح العدل واذهب فقف على رأس ملك العبودية وتقوَّ ولا تجزع .

الفصل السابع

المحاكمة

ففعل القائد حسب الامر . وأسرع الفيلسوف وصعد على قمة الصخرة ووجه خطابه الى ملك العبودية وأنشأ يقول : اصغي أيتها العبودية لكلمات فمي وانصتوا ياجميع قوّاد الشر . هوّذا ملك التمدن قد انتصب على عرش جلاله . فلتخفض دولة التوحش اعلامها . وها ملكة الحكمة قد ابتدأت تتكلم فلتخرس أفواه الجهالة . أين شوكتكم يامستعبدي البشر ؟ وأسنَّة الحرية لمعت في الافاق . أين صولتكم ياعاملي الظلم ؟ وألوية العدل خفقت في الاعالي . زولوا من الوجود. فقد دهمتكم الغلبة . حولوا . فقد أخذتكم الرعدة . ها قد هبت بكم عواصف القضاء المبرم الى غابة الحق حيثما تصدح بلابل العدل وترقص أغصان الامان تحت سماء التمدن العظيم . فلا عاد لسيوفكم رقابٌ تذلُّ ولا لنبالكم مرامي واغراض بين البشر

العبودية

فاعلم يامالك العبودية انّ جميع شرائعك وأحكامك التي كنت توسوس بها في صدور الناس قد سقطت الآن مبانيها ودثرت أصولها ولم يبق لها أثر في جميع العالم . وكل ملوك الارض قد نهضوا لدكّ معالمها . ولكن لم يزل بعض الناس الى الآن متمسكين ببقية خبيثة من نواميسك التي قد نشرتها بينهم منذ قام هذا العمران وما هي الا استعباد الاقوياء للضعفاء من بني البشر

فمن المعلوم لدى العموم ان الطبيعة البشرية قد خلقت في كمال الحرية الادبية وان خالقها ذاته عزّ وجلّ قد منحها هذه النعمة الجليلة عند ما أطلق لها عنان الاختيار بين الماء والنار واضعاً فيها معرفة الخير والشر ومبدعاً في سجيتها حركة الميل الى هذا والصدود عن ذاك

فمن أين يصوغ لبني هـذه الحرية الانسانية ان يبيحوا تمزيق جلبابها بأنياب الاغراض لبعضهم البعض ؟ . وكيف قد أمكن للانسان منذ القديم ان يستحسن هذه الذلة القبيحة لدى الخالق والمخلوقات وان يسلك بشأنها رغماً عن كراهية نفس غريزته لهـذا السلوك ؟. لانه اذا دخل كل من الناس الى مخدع ضميره انما يرى ذاته نافراً كل النفار عن ارتباطه بعبودية غيره ومتوجعاً كل التوجع لمن دفعته الاقدار الى فخاخ هذه العبودية الادبية الخاصة زيادة على تلك الطبيعية العامة السابق ذكرها. وليس الانسان فقط ينفر طبعاً عن هذه الجائحة السوداء بل وأكثر الحيوانات أيضاً . على انه متى عارض حركة أميالها مانعٌ ما ظهرت عليها حالا دلائل الانزعاج وأشارت الرغبة في الدفاع عن حريتها المدافعة .فلا يبرح الاسد الواقع في قفص الاسر يزأر ويضجّ حنيناً الى الغاب والعرين . ولا يزال النمر الموثوق بالسلاسل يصرخ ويعج رغبة في الوثوب الى أعالي الجبال . ولا يفتر الكلب يهرّ وينبح طالما يكون مسجوناً ولا ينفك الطائر السجين يخفق بجناحيه ويصيح شوقاً للطيران الى رؤوس الشجر . وهلمّ جراً .

فاذا كان الحيوان العديم النطق لا يأبى احتمال مضض الرق وذله ولا يصبر على ضنك الاستعباد . فكم يكون الانسان الناطق خليقاً بعدم احتمال هذه النازلة عندما يقع في شراكها ؟ وكم يتمنى لو أتيح له التخلص من هولها ؟ . وكم يكون خشناً بربرياً من يهجم الى باعة الاسرى وتجار الرقيق ليتعاطى بيع او مشترى أشباهه في الطبيعة وعدلائه في الانسانية؟ . وكيف يمكن الانسان الطبيعي ان يشاهد انساناً نظيره مغلولا بقيود التعبد والاسر ولا يحم غضباً و يؤخذ بخواطر الشفقة والحنان؟ . ولا سيما اذ يرى ذلك العبد الموجوع القلب والمنكسر الخاطر مرتعداً ازاء مولاه الاليم القاسي كالفريسة بين مخالب الوحش الضاري . وربما أفضت قساوة ذلك المولى الى ربط هذا المخلوق بالحبال وجلده بالسياط تحت مواقع العنف الشديد بدون أدنى رفق او خشية آثام . أيان دعا الداعي وكيفما كانت الحالة . حتى ان هذا المسكين يعود صارخاً ولا من يجيب ومستجيراً ولا من يجير ومستغيثاً ولا من يغيث

فهل يوجد قلب بشري حساس لا يلعن عادة اتخاذ العبيد بين الناس ؟ حينما يعاين انساناً يحوي كل الاخلاق الانسانية متخذاً له أسياداً من جنسه ومقدماً كل حياته ضحية في هيا كل أوامرهم المظلمة حيثما لا يجازى سوى بالضرب والشتم واللعنات . فلا يأكل خبزه الدنيء الا بالتنهد والحسرات ولا يشرب ماءه العكر الا بالدموع والعبرات . ولا ينام على فراشه الحجري الا قلقاً بالاوجاع ولاوصاب . وربما لا تكاد أهداب أجفانه ترتجف بمرور نسيم النعاس الا ويهب من مضجعه هبوب العاصفة اذ يتخيل رنين صوت في أذنه او هفيف وسواس ظاناً ان سيده المتغطرس القاسي القلب يدعوه لقضاء حاجة او سيدته المتكبرة الخشنة اتت تنبهه ليأتي فيغير لها رفائد الولد او يلهيه عنها اذا كان باكياً لكي يمكنها من استيفاء لذة النوم . وهكذا فلا يعطس أنف الصباح او يسيل مخاط الشيطان الا على يقظته .

فهات اعرب لنا يا أيها السيد عن الامتياز الطبيعي الحاصل بينك و بين عبدك البائس وقل لنا ما هو الفرق بينكما من حيث الشعور والاحساس . اخبرنا . هل تظن ان جلده الاسود لا يشعر بالفواعل المؤلمة عليه كنفس جلدك الابيض ؟ . وهل

تزعم ان شفاهه الغلاظ لا ترتاح الى مناولة الاطعمة اللذيذة كهين شفاهك الرقاق ؟ وهل تخال ان عيناه المستديرتان لا تشتاقان الى التمتع بطيب الكرى كذات عينيك المستطيلتين ؟ . وهل تفترض ان أنفه الافطس لا يحس بالمشمومات الزكية نظير أنفك الاقنى ؟ . وبالاجمال نقول هل تتوهم ان وجوده في بيتك تحت سلطان دراهمك التي بها اشتريته يجعله غريباً عن جنسك وبعيداً عن نوعك وذا حواس لا تشاكل حواسك ؟ . حاشا وكلا . ان جميع أعضاء هذا الاسير وطبيعته هي نظير أعضائك وطبيعتك ولا يوجد بينكما أدنى اختلاف سوى بجلده الاسود الذي ربما يكون زاهياً ببياض الافعال . وبجلدك الابيض الذي ربما يكون مدنساً بسواد الاعمال .

فمن أين أبيح لك مشترى الانسان وعذابه وقهره يا أيها الظالم الغشوم وكيف تمكنك الطبيعة الانسانية من مجاوزة حدودها وشرائعها بافعال شريرة كهذه ؟ . ألم تتحرك في باطنك جوارح الشفقة عند ما يكون هذ الغريب المسكين واقفاً بين يديك القاسيتين مرتعداً مذعوراً وعيناه مغرورقتين بالدموع ويداه مبسوطتين لديك بكل ذل وهوان عسى ينال منك العفو او الرأفة على ذنب ربما يكون حسنة .

اطلق هذا العبد الغريب . فلا يسوغ لك استعباد الجنس البشري . اطلق هذا العبد الغريب . فلا عاد يحتمل أثقال تهافتك ومضض خدمتك . اطلق هذا العبد الغريب . فقد بح حلقه من الصراخ وذبلت عيناه مما يترجى . اطلق هذا العبد الغريب . فقد انتثر لحمه من مقارعك وتلاشت قواه من أحمالك : اطلق هذا العبد الغريب . فقد أجمعت على اطلاقه كل ممالك العالم وهارائحة بارود أميريكا منتشرة الى الآن في آفاق المسكونة مما أثاروا من الحروب ضد مستعبدي البشر . اطلق هذا العبد الغريب أو يطلق ذاته رغما عنك آخذاً الاسعاف من جميع الناس ومساعداً من نفس الحكومة المدنية بعد ان يتقاضى منك أجرة المثل . اطلق هذا العبد الغريب . ولا تقل ان وجوده عندي خير له وماذا يعمل خارجاً لان الله يدبره وحسبه امتلاك بغيته الطبيعية وهي الحرية أو خذه مستأجراً وارفع عنه ثقل سلطانك . اطلقه اطلقه فلا عاد يمكنك استعباد الانسان . وسوف ترى ان نفس حضرة قيل مصر

سيبرز أمراً بابطال اقتناص العبيد من أعمال أفريقيا وسيلاشي هذه العادة المذمومة من بلاده حسبما يقتضي اجتهاده بادخال التمدن الى بلاده وتمهيد سبل الحرية فيها مقتدياً بولي نعمته جلالة السلطان العثماني الاعظم ذي الشوكة والاقتدار عبد العزيز خان دام ملكه مدى الدوران .

واذ كان الفيلسوف يجهر كان الذين ورائي يعوجون ويموجون بين الطرب والكرب ضاجين بأصوات مختلفة بين السلب والايجاب . فكان هذا يقول . نعم ان العبودية لا تحتمل ولا يوجد أصعب على الطبع البشري منها ولا أشنع من عادة اتخاذ العبيد وذا يقول : لا لا ليس الامر كذلك لانَّ الله قد خلق مولى وخلق عبداً اذ جعل اناء للكرامة واناء للاهانة والكتاب نفسه قد أمر بطاعة العبد لمولاه وصرَّح بدعوى هذا ودعوى ذاك ، فعلى أي أساس نبني بطلان العادة الآخذة مبدأها من سالف الحقب ؟ وذاك يقول : بكل حق يجب نسخ هذه العادة الخشنة التي ينفر منها الطبع الانساني ، ولا يجوز التعبد سوى لله الذي هو قال : للرب الهك تسجد وله وحده تعبد ، وما ورد من ذكر عبد او أمة في الكتاب يمكن تحويله الى الخادم او السرّية تحويلاً يتضمن الانتماء البسيط من الفقير الباذل تعبه بحريته الى الغني الدافع فضته بارادته منتخباً هذا او ذاك . وذاك يقول : ان هذا الكلام هذيان ، كيف نترك عبيدنا الذين قد اشتريناهم بالذهب والفضة وتكلفنا عليهم كذا وكذا من مال وأكل وشرب وكسوة ؟ ، اسمعوا يا ناس هل يطاق هذا الفشار القبيح ؟ ويقول الآخر : ليس الهادي سوى من ينزل الانسان منزلة البهيمة بالبيع والشراء والعلف زاعماً ان الزنجي أو المملوك الكرجي هو حمار ناطق ولا يوجد فيه أدنى احساس انساني ما شاء الله على هذه النتائج الذهنية !!!

وبينما كان هؤلاء المتعصبون الانانيون بضجيجهم وصخبهم واذا ايماء وزير محبة السلام يستوقف خطاب الفيلسوف المنتصب على الصخرة كارز لبنان وكان يقول للزنجي الواحد هكذا : اشرح يا ياقوت هنا علناً ما رويته لي خفية فتردَّد العبد خجلا ومهابة فأعيد عليه الامر فتقدم حينئذ هذا العبد الاسود قليلا وأحنى رأسه أمام

المظهر الملوكي ثمَّ نكص الى الوراء والتفت الى الحاضرين وافتتح كلامه بصوت منخفض يصعب اسماعه ، فناداه الوزير قائلا : اجهر صوتك ، فجعل العبد يقص بكلام جهوري قصته فقال :

— انه منذ خمس عشرة سنة بينما كنا ذات يوم أنا وأخي هذا مرجان (وأومأ الى زنجي آخر كان بجانبه) نسرح مع والدتنا في برية السودان على نحو غلوة من قريتنا وكان سني وقتئذٍ لم يتجاوز العشر وسنه لم يبلغ الثمان ، واذا بقافلة من فلاحي مصر نظرناها تخب في القفر بين الامواج الرملية المستعرة بايقاد الهجير آخذة طريق جبال القمر حيثما يتوهم انبعاث النيل ، فعند ما نظر الينا بعض الركاب أخذوا يعرضون علينا عن بعد بعض قطع كانت تلمع بأشعة الشمس مظهرين قصد اهدائها لنا فهرعنا اليهم حالا رغما عن ممانعة والدتنا وقتئذ التي حدثتها نفسها ولا شك بخطر هؤلاء علينا ، واذ دنونا منهم حيًا بالهدية قبضوا علينا سريعًا وارتدفونا على الابل وأطلقوا لها السراح ضاربين في أودية الرمال ، فطفقنا نتباكى ونتصايح باسطين أيدينا الى والدتنا التي كانت تولول وتنوح عن بعد بحنين يجرح الفؤاد وكانت تنسف الرمل على رأسها وهي تركض لتدركنا زاعمة امكان انقاذنا ، أما نحن فكنا نزيد بالعويل ونبالغ باستنجادها كلما كانت تقترب منا ، ولم تزل هذه المسكينة تجهد خطواتها حتى أدركت محملنا ، فأخذت تترامى على أقدام مقتنصينا سافحة دموعها السخينة وتتململ وترجى بلغتنا التي لا يفهمونها عفوهم عنا صارخة بصوت يحرك الجلمود ، أستحلفكم بما تعبدونه ردوا عليَّ ولدي كرمًا لرب النيل أعطوني ولديَّ ولا تتركوني أموت بفراقهما كمدًا ، ردوا عليَّ ثمرة أحشائي وأنا أعطيكم كلما أملكه من الخرز والقزاز ، أما مقتنصونا فكانوا يزدادون قساوة كلما ازددنا بكاء وازدادت والدتنا انتحابًا وململة فكانوا يضربوننا ويزجرونها ويلطمونها في صدرها ويرفسونها بأرجلهم ويلقونها على الارض ، وهي لم تزل تندب وتذرف العبرات وتتوسل وتتضرع بيديها وبكل شارات وجهها وهم لا يزالون يلطمونها ويصرعونها حتى غشي عليها وانطرحت على وجهها معفرة وكأن لم يعد بها نفس ، وما كادوا يبعدون عنها قليلا حتى أنعشتها

أرواح الحنيَّة وضوضاء عويلنا فوثبت على قدميها منهوكة القوى واسرعت الينا ثانية . فاذ رأها قانصونا الظالمون تتبعهم عادوا الى ضربها ومدَّ أحدهم على هذه الام المنكسرة القلب بندقيته وأطلق الرصاص على أحشائها فسقطت على البساط المقفر وتلوَّت قليلا بتنهدات متقطعة وسلمت الروح متكفنة بالرمال

وعند ما رأينا ما حلّ بامنا التعسة من الويل تملكتنا الرهبة ووقعنا في هوّة اليأس من الخلاص فصمتنا آخذين بالصبر الذي هو سند المصابين بالمحن . وأخذت الاباطح تسيل بأعناق المطايا التي كانت حاملة كثيرين من بني جنسي المقنوصين . ولم نزل نفري بطون السباسب والقفار حتى بلغنا الرستاق المصري . أما أنا فلم أعلم ذاتي بعد الا ممسوكا بيد أحد النخاسين تجار العبيد ومنادى على بيعي في سوق القاهرة فاشتراني رجل من الاغنياء وأدخلني في داره للخدمة . أما أخي فما كنت عالمًا ما كان من أمره . فجعل هذا الرجل يعاملني بأقسى المعاملات وأخذت أطيعه الطاعة العمياء . ولكن لسوء حظي لم تكن طاعتي موجبة لراحتي لانني كلما كنت أزداد نشاطًا وهمة في خدمته كان يزداد صرامة وقساوة حتى انه مراراً عديدة كان يربطني بالحبال ويجلدني بالصوت لاقل سبب نظير عدم طيراني كالباشق حالما يدعوني أو عدم اجرائي كالواجب ما يكون في ضميره ، وطالما كان يقول لي (أما تعلم ارادتي أما فهمت مزاجي) هذا وقد كنت في سن لا يسمح لي بعلم الضمائر الخاص بالله ولا بفهم الامزجة المنوط بالاطباء ، ولم أزل صابراً على هذا العذاب الاليم ومقاسياً صعوبات هذا المولى الظالم حتى بلغت الثمانية عشر عاماً اذ خرجت من عبوديته ، وكان سبب خروجي انه في ذات ليلة أرسلني لاستدعاء أحد جلسائه اليه فخرجت مسرعاً لقضاء أمره وكنت في أثناء طريقي أرفع نظري الى الجو لأستعلم ابتداء هبوط الامطار لان السما كانت في تلك الليلة موشحة بالغيوم الكثيفة ومدلهمة على شكل ذريع جداً وكانت البروق تتلوى تلوّي الحية الرقطاء وتنشب من سحابة الى أخرى مخترقة أعماق الفلك .

فما بلغت نصف الطريق حتى انفتحت ميازيب السماء وانحلَّ وكاء السحاب

وابتدأ يهبط برد عظيم نظير الحجارة بحيث عـدت أظن انّ السماء شرعت ترجم الارض بحممها او الضربة السابعة من ضربات سيدناموسى نهضت من كمين العدم ، وكانت أصوات الرعود تزلزل أساسات المسكونةوهبوب الرياح ينسف الجبال نسفاً ، فأخذتني الدهشة والرعشة مما لم تتعوده عيناي في تلك الديار لندرة حدوثه ، فما كنت أشكُّ ، حينئذفي انّ الخليقة جميعها تموج هلعاً ، ولما لم يعد يمكنني المسير خوفاً من سحق حجارة البرد لرأسي وتهشيمها عظامي تواريت في احدى الزوايا وصرت من جملة الخبايا ،

وعند ما انفطر كبد الغادية وأسفر البدر عن الاضواء لدى سـاعة من هيجان الطبيعة أطلقت أقدامي الى تتميم الرسالة فلم أنظر الرجل في بيته فرجعت الى سيدي وأخبرته بذلك ، فأزبد وأرغى واخرنطم وبرطم وحملق عينيه الاتونية وقال :

— لماذا تأخرت الى هذا الوقت وتركتني أموت خوفاً ؟

— لانَّ البروق والرعود أدركتني في نصف الطريق لذهابي فخفت واختفيت .

— ولماذاخفت ياخبيث ولم ترتهّ جالاً الي ّ ؟

— لاني خفت على نفسي الهلاك ومتى عصيتك يا مولاي ؟ وكيف أرتدُّ راجعاً بدون تتميم امرك ؟

— اذن انا لا أقدر ان اهلك واطحن عظامك اكثر من هاتيك الزوابع وهل جسدك الذي هو ملـكي افضل من ارادتي يا عبد السوء ؟. ثمَّ هجم الى العصا مكفهر الوجه محمّر العينين وهو يردد هذا البيت البربري الذي صاغه المتنبي للـكيد بكافوره

لا تشتر العبد الا والعصا معه ان العبيد لانجاس مناكيد

ووثب عليّ كالوحش الضاري وصار يضربني ضرباً عنيفاً حتى انه مزق جلدي وكاد ينثر لحمي وهو يقول لي بصوت أبح (هربت من غضب الله فابشر بغضبي) وأخيراً قلت له اتق الله ياظالم أيُّ ذنب جرى مني يستحق كل هـذا القصاص ؟؟ فأجابني أتعنفني يا أسود الوجه اخسأ واخرس

ثمَّ ذهب فأتى بمسـد عازماً على ربطي وتجديد الضرب . فلما رأيت حياتي

وقعت في الخطر رفعت مهابته من قلبي وهجمت عليه غائباً عن الرشد والحس ّ وواقعاً في اليأس فمسكت يديه بقبضتي ودفعته الى الحائط دفعاً شديداً ورفست بطنه برجلي حتى كدت أخترط أمعاءه وقلت له أقتلك او تطلق سبيلي يا أسود الطبع . ولما أخذ يعاركني وهو في غلو الهيجان واغراق الافتيات تناولت الحبل المعدّ لي وشددت به يديه ورجليه وألقيته موثوقاً بدون حراك . واذ نظرت ذلك امرأته وأولاده أخذوا يصيحون ويضجون ليجمعوا الجيران . ففتحت الباب وطلبت الفرار وأبقيتهم في طغيانهم يعمهون .

وما زلت أركض هائماً على وجهي حتى بلغت دسكرة فدخلتها وطلبت حجرة للنوم فأجيب طلبي . فتوغلت في هذه الحجرة وأغلقت الباب . ثمّ انطرحت على الفراش كالقتيل ولم يكن ما يستنار به سوى سراج طفيف . وبما أنّ أوجاعي وأفكاري كانت في غاية الثوران لم تكتحل اجفاني بإثمد الغمض ولم تذق عظامي طعم الراحة وفيما كنت انظر الى النور الظئيل المنبعث من السراج الذي كان موضوعاً نصب عينيّ وأنا مشمول بشمول الخوف صار نور السراج يتراقص كفرائصي ويخفق كقلبي وما لبث أن أسلم روحه فانطفأ . فاختطفتني موجة الظلام وابتلعني غمر الدجى واطبقت الوساوس عليّ فاها وما عدت أرى سوى ظلمة الموت ولا أسمع سوى صفير الرياح المتلاطمة بين الابنية . فصارت هوام الاوهام تتطاير في حرش مخيلتي تطاير الشرر المنتثر وعادت غربان الوساوس تحوم على خربة رأسي من كل جهة حتى صرت أخال نفسي قائماً في وسط جهنم .

ولم أبرح متقلباً على فراش القلق والارق ضارباً في أودية الويل خابطاً في لجج الليل الى أن تبلجت كوّة الحجرة بشعاع السحر اذ علمت انّ النجم قد غار على جواده الادهم والصبح قد أقبل على صهوة حصانه الاشقر فقفزت من مضجعي قفز الغزال المذعور ووقفت في وسط المخدع لاجمع شوارد أفكاري وأنتخب منها ما يرشدني الى سواء السبيل . واذ أولجت يدي في جيبي على غير قصد ايفاء لما تطلبه بديهة الهجس عثرت على بعض قطع من الدراهم كانت مذخورة لمصروف بيت مولاي

فشملني الفرح للحال وقلت في نفسي ها قد استلمت طرف زمام المستقبل. ففتحت الباب المغلق وأطلقت لنفسي عنان المسير. واذ بلغت باب الدسكرة وجدت صاحبها مدلجاً هناك فطلب مني أجرة المعرّس فأعطيته شيئاً من الدراهم وواصلت الجري حتى أصبت الجسر. فما لبثت برهة أنتقد ذاتي حتى رأيت ذهبية قاصدة الاسكندرية فانخرطت بها وأخذت تفرط زبد الماء لدى مهب الهواء في ماء النيل العذب.

وبعد ثلاثة أيام بلغنا الاسكندرية فصعدت الى البرّ وطلبت جانب الميناء فصرت هناك عتالا. وغب كرور خمسة أشهر خلعت أبهة العتالة وصرت ملاحاً في احد المراكب العربية الذي يمخر في بحر الروم. ولكن بعد بضعة أشهر خطر لي ان أترك الملاحة وأدخل احدى المدارس التركية. وما ذاك الا لانني صرت أسمع شتيمة الجنس العربي واحتقاره من جميع الافرنج الذين كانت مراكبهم تصادف مركبنا في عرض البحر وقالوا ان أولادهم يظنون ان العرب هم نوع منقطع عن الجنس البشري ولا يحسب الا من جملة الحيوانات. الامر الذي ينتج عن كثرة استماعهم عبارات الازدراء والتحقير من آبائهم لامة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم

فقلت في نفسي انّ الجهل الفاشي في الامة العربية هو الذي أوجب انحطاط شأنها لدى الامم الاوربية ولو كان للعرب مدارس نظير ما للافرنج ومساعدون على تقديم العلم محبة وطنية منزهة عن أغراض لدين لما أصبح العرب أضحوكة عندهم بل ربما صار العرب أرقى من جميع الامم علماً لشدة حذقهم الطبيعي وحزمهم. ولا ينكر الغرب فضل العرب عليه.

ولما تمكن من ذهني خاطر الدخول الى المدرسة بناء على انّ كلاً يعمل على شاكله تركت مركبنا وركبت سفينة تجارية وقصدت الاستانة العلية دار السلام فوصلت اليها. وبعد قليل من وصولي طلبت الدخول في المدرسة العسكرية ففتحت لي الاحضان وشرعت بالدراسة ناسياً كل ما جرى على رأسي.

وبينما كنت ذات يوم أتمشى على جسر غلطه وقت الراحة واذا عبد نظيري يقول لي:

— نهارك سعيد همشري .

— نهارك سعيد مبارك .

وبعد أن تأملته بامعان أشعرت بشرارة كهربائية طارت من دمي وسرت في جميع مفاصلي فسألته :

— ما الاسم ؟

— مرجان . فازددت حناناً الى محدثي وقلت :

— وكيف كان مجيئك من بلادنا ؟

— بقوة الاختطاف .

— وكيف كانت طريقة هذا الاختطاف ؟ وهل خطفوك وحدك أم خطفوا غيرك معك ؟

— خطفوا معي أخي أيضاً لانني كنت أنا واياه نتمشى في البرية واذا جماعة من المصريين دنوا منا وخطفونا وقتلوا والدتنا لانها تبعتهم لانقاذنا من أيديهم

فما عاد عندي أقل ريبة في أنّ هذا العبد هو أخي ذاته . وحينئذٍ غرغرت عيناي بدموع الفرح وخفق قلبي بأجنحة الشوق والحنان ولكنني اجتهدت باظهار الجلد لاستتم التأكيد فسألته :

— وما اسم أخيك ؟

— ياقوت وهو أكبر مني .

فقبضت على يده وقلت له اتبعني لاريك أخيك . فأخذته الى حجرتي على انفراد وقلت له أنا هو أخوك ياقوت . فتعانقنا وتباكينا ساعة حتى أطفأنا بمياه الاماق نار الاشواق . ثمّ قصصت عليه جميع ما جرى لي من الاول الى الآخر . وبعدئذ طلبت منه انٍ يروي لي ما جرى له وكيفية وصوله الى الاستانة . فقال :

— انّ تاجر العبيد في القاهرة باعني الى رجل اسكندراني فذهب بي الى الاسكندرية وجعل يستخدمني في بيته وأنا صغير لا أعرف شيئاً سوى اللعب مع الاولاد . ولما بلغت أشدي باعني الى أحد الاتراك . فأخذني هذا الرجل وسافر

بي الى اسلامبول وأبقاني عنده مدة سنة . ثمّ باعني الى رجل من كبار هذه المدينة: وها أنا منذ سبع سنين في خدمته

— وكيف معاملته لك ؟

— بغاية الرقة واللطافة حسبما تقتضي طبيعة أهالي الاستانة . ولكن مع ذلك أرغب جداً في العتق لان الفكر وحده بوجودي عبداً و بكوني أنا وملك يدي لسيدي و بأنّ حياتي وموتي بين شفتيه أو يديه ومتى شاء باعني ومتى شاء اشتراني بحيث لا يوجد لي أدنى حرية معتوقة ولا حركة مطلوقة انما يجعلني مائلاً كل الميل الى الحرية والعتق ولو صرت خادماً بما يسدّ رمقي عند احد الرعاع

— اذن تشتهي العتق

— نعم من كل قلبي .

— فلماذا لا تطلب من سيدك أن يعتقك ؟

— كيف أطلب منه ذلك وهو قد اشتراني بماله لخدمته ؟

قال ياقوت : فلما سمعت هذا من أخي قهقهت ضاحكاً بملء شدقيّ وقلت له : جُعلت فداك ياأخي أولم تعلم حتى الآن انّ الحكومة قد أبطلت الاتجار بالرقيق وماعادت تسمح بمشترى العبيد واستعبادهم وانك متى رجعت اليها بادرت الى تحريرك ان شاء سيدك وان لم يشأ ؟ فاذهب حالاً الى سيدك واطلب منه أن يعتقك وان أبى ارجع اليّ وأنا المسئول عن تحريرك

قال ياقوت : فذهب أخي من عندي و بعد ثلاثة أيام أتاني ومعه ورقة العتق فأدخلته معي الى المدرسة و بعد مرور خمس سنين خرجنا منها ودخلنا في خدمة دولة التمدن تحت راية جانب السلطان الاكبر وها نحن بين أيديكم نرى أخصامنا بأعيننا ووثاقهم بأيدينا فأعزّ الله أنصار الحرية وأيد دولة الرفاهية

و بعد تتميم الزنجي روايته المحزنة التي أثرت على جميع من في المحفل ولفتت كل اهتمامهم ساد السكون برهة كانت فيه الملكة تمسح عينيها من الدموع التي استقطرتها رواية العبد . ثم التفت وزير محبة السلام الى الفيلسوف الذي كان مستنداً الى الصخرة

بدون حراك وأوعز اليه بالاشارة ان يرجع الى كلامه . فلمس الفيلسوف جبهته المرتفعة بيمناه وأنشد يقول :

هذا ما يجب تبليغه لمسامع ملك العبودية الذي اذا لم يسلك حسب مضمون ما تقرر لديه فلا قيام لمملكته ازاء تقدم هذا العصر الجديد . فليسمع قواده وأنصاره ما سيرد عليهم ايضاً وليركنوا الى الحق . ثمَّ التفت الى قائد الجهل مبتدئاً به وطفق يقول

الجهل

اما أنت ايها الجهل فمن أقبح الارواح الشريرة التي تفسد في الارض تأييداً لملك العبودية وتخريب أبنية العلم . فما أنت الا السبب الاعظم لاكثر الوبال الذي جرى ويجري وسيجري في المسكونة . والاصل الاول الذي منه قد نشأت فروع البدع والخرافات التي تجعل البشر عبيداً لأهوائهم وأباطيلهم وتحرمهم لذة حرية الحياة . فاذا كانت المسببات تستلزم من الاحكام عليها ما تستلزمه الاسباب مضاعفاً فكم تكون اذن يا ايها الجهل مستلزماً صرامة الحكم بمقتك من الناس وتبديدك وكسر شوكتك والنفار عنك طالما تعتبر كسبب وأصل لتلك الآفات المحكوم عليها بالمقت والكراهية منذ بدء الخليقة ؟ وكم يجب على البشر ان يعتنوا بتهديم مملكتك أمام العلم الذي حيثما حلَّ حل معه المجد والعظمة والكرامة

فبالعلم يجلس الانسان على قمة كماله الطبيعي ويعمل حسب استحقاق انسانيته . وبالجهل يهبط الى أسفل السافلين ويصبح بمصاف سائر الحيوانات . بذلك تعظم قوة الممالك وتصان حدود الملوك وبهذا تسقط القوات ويمدُّ التعدي باعه . بذلك يقوم اعتبار الشعوب وتنتشر ثروة القبائل وبهذا يخفق جناح الاحتقار وينعق غراب الفقر والاقلال . بذلك قد تلألأ محيا الغرب . وبهذا قد أظلم جبين الشرق

فكأنَّ الشرق بابٌ للدجى ما لهُ خوف هجوم الصبحِ فتحْ

ومع ذلك لا يجب على التمدن ان يستأصل جميع جذورك من أرضه يا ايها الجهل . على انه لا بدَّ من بعض دخل لك في غوطته استدراكاً لشيوع الدعوى

بمام العلم ما بين غير أهله شيوعاً لا ينكر ضرره . لانّ الانسان المدعي للمعارف على غير اصل انما ينشيء اضراراً جمة اذ يزرع في عقول أصحابه ورفقائه الذين يثقون به قواعد وحقائق كاذبة باطلة وهم ينقلونها الى غيرهم الى أن تشيع وتذيع وربما صارت أساسات يبني الناس عليها ما يفضي بهم الى الضلال والطغيان فيعود مقتضياً لنفوذ أنوار الحقائق في أبصار بصائرهم عناء عظيم ويكون سبب ذلك هذر الجاهل المدعي

فيجب اذن للتمدن ان يترك يدأ لقائد الجهل في دائرته لكي يوحي اليه بواسطة تغلب العلم ان يلطم أفواه تبعته ويضع أقفالاً عليها فلا يعودون يفوهون بما يؤذي بل يحنون رؤوسهم أمام عظمة العلم ويجتهدون في تلقي الحقائق على قدر الامكان ويعرفون أنفسهم انهم منتسبون الى الجهل . حتى والمتوغلون في بواطن الاشياء ايضاً طالما يلتجئون الى حكم الجهل لكثرة ما يرون من المجهولات التي يفوتهم ادراكها . وكلما ازداد الانسان علماً ومعرفة وجد لحكم الجهل عليه اتساعاً وغلبة لانّ نسبة ما يمكن علمه الى عالم المجهول هي كنسبة ما يمكن للنظر احاطته من البحر الى ساحة المياه جميعها او ما يمكن رؤيته من النجوم الظاهرة القليلة الى بقية الاجرام المختفية الممتنع عددها . فكما انّ كروية البحر ورحابة الفلك تقدمان للنظر أمداً وعدداً اكثر كلما ارتفع الناظر وقوّي أسطرلابه الى أن يحكم في النهاية بعدم امكانية الادراك العام لما أمامه فيرجع بصفقة المغبون . هكذا العلم ايضاً فهو يعرض للدارس حقائق ومباديء اكثر كلما ازداد توغلاً فيه الى أن يجزم في النهاية بامتناع الاطلاع المطلق على كل شيء فيرتدّ ضارباً أسدريه متخذاً الجهل عذراً له . فعلى كل حال اذاً يجب ان يكون العلم والجهل مترافقين في خدمة مملكة التمدن ولكن بشرط ان يكون الثاني في كتف الاول مطيعاً له . وهكذا فيكون كل منهما عارفاً بواسطة رفيقه حقيقة حدوده فيلبث الواحد مجداً في تمهيد مسالك العمار والطاب ويرجع الثاني عن المعارضة الى توقيف السير وراء الخراب الناجم عن الدعوى الكاذبة بحيث يصير هذا مدركاً حده وذاك عارفاً نقصه

الكبرياء

اما أنت يا ايها الكبرياء فمن أدهى الارواح التي تتعب في مرادها الاجسام ومن أعظم القوات التي تجعل البشر سالكين تحت نير العبودية لانك تتركهم عديمي الحرية في تتميم مقاصدهم وواجباتهم . فتعدم كلاً منهم قسماً كبيراً مما يخصه من الحقوق على الهيئةالتي هي أيضاً تفقد أهمّ حقوقها على أبنائها بحيث يصير هذا محروماً من التمتع بتمام الالفة والمخالطة وتلك معاقة عما تطلبه من الانتظام والالتئام

فهل دخلت يا أيها الروح الشرير في أحد الا وتركته يخبط في لجة البلبال والتعب وجعلته مرذولاً ومبغوضاً من جميع بني نوعه ؟. فحيثما جلس رأى نفسه أرقى من محله وأعز من جلسائه واذا ألقى سلاماً على أحد أو تكلم معه غيره زعم انه قد تنازل بذلك تنازلاً عظيماً على مايتوهم من علوّ قدره . وان قضت عليه الحاجة بالسوال عن أمر يجهله أو الاستفادة من شيء ما من أحد الناس يقع في حيرة عظيمة واضطراب لا مزيد عليه ويصير محلاً لتنازع عوامل الطلب والترك اذ يرى لسانه منبسطاً الى المطلوب وقلبه منقبضاً عنه فتثور في جوانحه نار الالوهية وياخذ بارسال اشارات ورموز عن مقصده عسى ينال الجواب والفائدة بدون تصريحه بسؤال رسمي . واذا أعياه بلوغ المراد حاول ان يسبك السؤال في قالب قصد التنكير لمعرفة لا طلب التعريف لنكرة دفعاً لنسبة الجهل او الوقوع تحت المنة واختلاساً للفائدة من غير أن يغضّ من كبريائه . واذا أوقعته الصدف بمرافقة أحد الى الدخول في مكان ما حاول كل المحاولة ان يتقدم عليه ويبقيه خلفه .

وهكذا لا يزال هذا المتكبر الاحمق معجباً بنفسه عاقداً حواجبه اذ يظنّ ان السماء تعنو لديه والارض تجثو لاقدامه مع انه يكون بمقتضى هذه الاطوار مبغوضاً وممقوتاً من الجميع ومنبوذاً من الهيأة الاجتماعية التي تأسف عليه بينما هو أيضاً يندب سوء حظه ويبكي على حياته التعسة المقيدة بسلاسل العبودية لكبريائه اذ يرى حاله مقهوراً لطبعه ومحروماً من لذات الخليقة ومرذولا من الخلائق ومداناً من الخالق .

فلا يعتبر الا كورقة الخريف المستعدة للهبوط من أعاليها لدى أقل حركة من الرياح.

فقل لنا يا أيها الروح المتعجرف من أنت؟ وما أنت ؟ لنعطيك حقك. فان كنت بشراً فما فضلك على البشر ؟. وان كنت ملا كاً فأنت ابليس الاستكبار اذا لم تسجد لآدم متواضعاً . وان كنت ملكاً فأنك خادم الناس ما دمت كبيرهم ولا تنفعك كبرياؤك عليهم وستحل في قبر النسيان قبل حلولك في قبر الابدان وقد قال قبلك الملك والنبي داود أنا دودة ولست انساناً . وان كنت نبياً فما عندك آية سوى الكبرياء وهذه سيماء الدجال . وان كنت رسولا فقد كذبت رسل من قبلك . وان كنت من ذوي الفضل والاحسان فانهما من الواجبات البشرية ولا يسمح لك واجبك بالتيه والعجب على غيرك . وان كنت غنياً فثروتك لنفسك ولا تنفع بها أحداً ما لم تنتفع منه أولا على انَّ الاغنياء والفقراء متبادلون حقوق المعيشة على السواء . وان كنت حيواناً فأنت واقع تحت قدمي الانسان اذ تكون غنمة او بقرة أو احدى بهائم البقاع .

ومع ذلك لا ينبغي الرفض المطلق لقائد الكبرياء من مملكة التمدن حذراً من حصول الدناءة التي لا تليق بالبشر . بل يجب تركه مقيداً بحكم الاتضاع حتى يستوفي كل منهما حقه حسبما يقتضي الحال فتكون النتيجة حصول عزة النفس المقبولة في شرائع التمدن وزوال عبودية الاستكبار عن الانفس .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظرٍ على صفحات الماء وهو رفيعُ
ولا تكُ كالدخان يرفع نفسه الى طبقات الجوّ وهو وضيعُ

الحسد والطمع

ها قد وصلنا الى هذا الروح الذي كثر شرُّه وعظم ضرُّه منذ البدء الى الآن أعني به قائد الحسد والطمع كعبة الشقاء وركن الفساد ، فما أنت يا أيها الروح الشرير الا آلة بها يفتك الناس بعضهم ببعض وبها أنشأوا كل حقد وعدوان . فطالما كنت سبباً لسقوط ممالك وزوال ملوك وعظماء ، فبك هلك قائين اذ أوقعته في معصية

القتل ، وبك هلكت امرأة لوط اذ أطمعتها بسبر غضب الله ، وبك طردت هاجر اذ نزلت في قلب ساره ، وبك طاب يعقوب الفرار اذ أثرت سخط العيس ، وبك سقط يوسف في البئر وبيع وأسر اذ فشأت في أرواح أخوته وبك زهقت روح شاول اذ أملأته حنقاً على داود ، وبك تبلبلت دولة المكدونيين اذ أفرغت فيها سمومك وبك قتل يوليوس قيصر اذ دخلت في قلوب أصحابه ، وبك وبأفعالك قد رجمت الفلاسفة ورزات العلماء وانخزلت الائمة ،

فكم يجب على البشر ان ينفروا عنك ويبغضوك يأيها الحسد والطمع ؟ لانك تجتهد على الدوام في القاء الحقد والبغض ما بينهم وفي تفريق شملهم اذ تجعلهم أخصاماً وأعداءاً بعضهم لبعض أفراداً واجمالاً .

فمتى دخلت في قلب انسان جعلته عدواً مبيناً لانداده ونازعته الراحة والحرية ، فاذا كان ملكاً أخذ يضارب الملوك ويشنّ الغارات عسى ينال المرتبة الاولى على الجميع ، وان كان وزيراً جعل ينا كد الوزراء ويشي بهم عند الملك رغبة في الارتقاء عليهم ، واذا كان شريفاً شرع ينمُّ على الاشراف ويستهجنهم ازاء العامة ويقذفهم بكلمات الاحتقار أملاً منه بأن يعمي عيون الناس عن ان ترى شريفاً سواه ، واذا كان غنياً تاجراً طفق يسخر بالاغنياء التجار ويشنع بهم ويشيع عنهم أخبار الافلاس لكي يزيل اعتبارهم من بين الناس مؤملاً ان ينحط عمود ثقتهم بقوة ذلك التشنيع والاشاعة فيسر فرحاً واذا ساقه الحديث أخذ يسند غناهم الى عامل الشحّ والبخل فيما انه يكون أشحّ وأبخل ، ولم يزل يتزايد الحسود حسداً حتى انه ربما لا يعود يستطيع النظر الى ثوب جديد غير ثوبه او طعام لذيذ غير طعامه ، واذا كان عالماً او شاعراً أخذ يزدري بمؤلفات العلماء ويهزأ بقصائد الشعراء باذلا جهده في اعلان زلاتهم وغلطاتهم على خطأ كان او صواب حتى اذا عثر على شيء من ذلك أخذ بوق الانتقاد وجعل ينشر بصراخه كل أموات الغفلة ، وربما أفضى به الحال الى ان يطرح من يده كل مؤلف او قصيدة لمن سواه من العلماء والشعراء ولا يهمُّ بالقراءة حذراً من ان يرى فكراً أجلّ من فكره او علماً لا يعرفه ، وبقدر ما يري من

سمو أفكار غيره وجمالها يكون شعوره بثوران لهيب غضبه وهيجان بركان انتقاده ، وهكذا فربما لا يعود في طوق لسانه ان يلفظ سوى الشتائم والمسبات التي أخفها قوله : هذا سخرية ومخرقة وهزيان وركاكة كل هذا يقوله حسداً بدون ابراز أقل حجة يحتج بها على حجة احتقاره فضائل الغير ، هذا اذا لم يطرح قياد العلوم والقرائح في عهدة الجنس او المذهب .

وقس على ذلك سائر المراتب والصفوف من البشر الذين يأخذهم روح الحسد والطمع ، فكم يستفزّ هذا الروح شروراً و بغضاً بين البشر؟ وكم يهتك حرمة هيآتهم و يخترق ستار اعتصابهم ؟

فماذا ينفعك الحسد يا أيها الحاسد الجاهل وهل تظن انّ هذه الخلال توصلك الى أوطارك وآمالك ؟ حاشا الله . انّ هذه الخلال القبيحة لا تسديك سوى التقلب على النار الدائمة في الدارين ولا تجديك سوى قلق الفكر وعذاب النفس والتنهدات والحسرات ، وتجعلك مضغة في أفواه الناس ومهملاً من الجميع .

ولا يخفى ما يترك الحسد والطمع من الشوائب الذميمة في الانسان وذلك نظير البغض والحقد والحنق والاختلاس وحب القتل والاضرار ، وكل من هذه الاطوار الرديئة يترك وراءه أطواراً أخر أشدّ رداءة الى ان يصبح الحاسد مؤلفاً من كافة الارواح الخبيثة ، فلا بدع اذا كان الحسد يشبه الشجرة الهندية التي يسمونها المستحية وهي كلما وصل غصن منها الى الارض ثبت وصار شجرة وهكذا الى ان تنقلب أخيراً الى غابة عظيمة تغشو اليها طيور السماء والحشرات تسكن في مقادمها

فلا يوجد شيء أشدّ مقدرة على استعباد النفس من الحسد والطمع ، فانّ هذا الروح اذا تمكن من الانفس وثقها بحبال العبودية الخاضعة لسلطان الانفعالات ومنعها من التمتع بأدنى لذة أدبية فتبقى مرتجفة بين فواعل الشهوات كارتجاف العصفور بين مخالب العقاب . فاقدة كل سلامة الحواس اذ لا تعود ترى سوى تناثر شرر الاضطراب والارتباك ولا تسمع سوى دوي أصوات القنوط والاكدار ولا تذوق سوى مرارة الاميال والآلام ولا تشمّ سوى رائحة الاختلاط العصبي ولا تلمس

سوى خشونة الاشياء الغير مملوكة منها .

ومع كل ذلك فلا بأس من ترك مجال ضيّق لقائد الحسد والطمع في أحكام التمدن لانّ هذا الروح يقود الناس الى المغايرة التي ينجم عنها فوائد جزيلة لترقية الجمعية البشرية نظير الهجوم على درس العلوم وتنشيط الاشغال وتنبيه القوى الاختراعية ونحو ذلك . ولكن يجب ان يرفق هذا القائد بالرضى والقناعة ويكون خاضعاً له لكي يمتنع ضرر ذاك ويقوم نفع هذا فتحصل المغايرة النافعة

البخل

هوذا ضجيج عظيم آتٍ من كافة أقطار الارض . صراخ شديد يدوي تموجه في المسامع فأميلوا آذانكم ياقاصدي التفتيش حملقوا بأعينكم لترى ما هذه الضوضاء الآتية من بعيد وعلى م ذلك الصياح المرعب . ها قد بدأ يلوح لي انّ فتنة كبرى تثور في العالم . نعم فتنة كبرى آخذة بالثوران . لانّ أصوات لعنات وشتائم تتوارد الى أذنيَّ محمولةً مع طلقات الضجيج . فما سبب هذا الافتتان العظيم وعلى من يدور مداره ؟. ألعلّ ذلك على البخل؟. لان أكثر تلك اللعنات والمسبات تنطبق على اسمه كما تسمعون . بلى على البخل على البخل . ولا يوجد من يستحق نهوض العالم ضده نظير البخل لان البخيل يجتهد على الدوام ان يحشد أرزاق البشر في خزانته ويحشر قوت العباد في جيبه ولو أوجب ذلك خلل النظام العام واستعباد الانام .

وهاك قائد البخل منتصباً لدينا تجاه الكرم وهو قابض بيديه على ساعد دولاب المعاملات ومساعد قيام الحيوة فلنوجه خطابنا اليه قائلين

ها قد نهضت المسكونة عليك يا أيها الروح الخبيث قائد البخل والشحّ وها جميع الناس يقذفونك باللعنات والمسبات فأنت مستوجب ان يحكم عليك بالخزل والرزل بدون تردّد لانك تودُّ مطلقاً ان ينغلق كل باب لتقدم الخلائق وتنفتح كل سبل التقهقر أمامها . انك لتخزن الاموال ولا تدع لها منفذاً . أما تعلم ان العطاء ينهج طرق الخير ويغيث أخاك الجائع ؟. وتكثر الدنانير والدراهم في أعماق الصناديق حذراً

من ان يلامسها الهواء او يمسها النور والفقراء في شر حالات التعاسة . أما تدري ان الدراهم قد صارت الآن محوراً لمدار عالم المعاطاة وان حجزها يضيق دائرة العلائق البشرية ويعيق تبادل المعاملات ؟. انك أيها البخيل تطرد كل سائل ومحتاج ولو على فلس وتميل عن كل عمل كريم أو سمة تقتضي السماحة والاحسان أما تعرف ان العضو الاعظم لترتيب حياتك يؤخذ من مثل السائلين والمحتاجين ؟ . فهم يبنون دارك وحانوتك . وهم ينسجون ثوبك ورداءك . وهم يجهزون كل أدوات طعامك وشرابك . وهم يتسارعون اليك من كل الجهات ليحرسوك من وثبات المختلس وهجمات العدو . وهم يمدون أيديهم ليرفعوك لئلا تعثر بحجر رجلك . واذا شبت النار في منزلك ألقوا أرواحهم لينقذوك وأولادك ويجمعوا أمتعتك . فلماذا تدوس أعناقهم اذا انطرحوا تحت قدميك يطلبون اسعافاً ؟ ولماذا تعرض عنهم وتشتمهم اذا مدوا أيديهم اليك ليطلبوا ما يسد رمقهم من فضلات مالك؟ حتى اذا أمكن للالحاح ان يقتلع من فولاذ يدك بارة واحدة شعرت بألم اقتلاع الضرس ، ولماذا تعصي الآمر باشباع الجائع واكساء العريان ؟ أما تخشى وقوعك في ثورتي الدنيا والآخرة ؟

وكم تهجس على مضجعك في أمر التوفير وتتصل به الى حسابات وكميات تفوق طور الادراك مرتقياً في سلسلة التضعيف والضرب حيث تقول في ضميرك : انني من الغد سأشرع بتنقيص كمية اللحم والبقول والزيوت و باجهاد الاولاد في تتميم الاعمال الخدمية اقتصاراً بهم عن الخدم ، ولم أزل أنقص مقدار الطعام وأعود الاولاد على الخدمة حتى نستطيع أخيراً ان نعيش على النزر من الخبز والقليل من الجبن او الزعتر وقادرين على قضاء كل الاعمال الشاقة ، وبهذا العمل يمكنني ان أجمع كل مال العالم ، لان درهماً ودرهماً درهمان ، ودرهمان ودرهمان أربعة دراهم، وأربعة دراهم في أربعة دراهم ستة عشر درهما ، و١٦ في ١٦ يساوي ٢٥٦ و ٢٥٦ في ٢٥٦ يساوي ٦٥٥٣٦ ، وهكذا ترتقي أيها الشحيح من المضروب الى المضروب فيه الى ان تبلغ الحاصل الاعلى حيثما لا يوجد رقم ولا يجري قلم ، وحينئذ تأخذ نفساً

وتقول هاأنا مزمع ان أملك العالم بأسره وأوقف كل دواليب الاشغال وأجعل الناس عبيداً لي .

نعم ستفعل هكذا ياهذا البخيل ولكن بعد ألوف من السنين اذا لم تمت بداء الجشع ، فليعش رأسك الكريم ولينجح مقصدك العظيم ، ولاعتب عليك اذا فكرت في نفسك هكذا لانك تزائق القمر في مشروعه فكما ان هذا الجرم يخال انه سيوقف دوران الارض بعد عدد من ألوف ألوف السنين لا يحصى ، وذلك بتأخير جاذبيته لحركتها ست ثوان في كل جيل،هكذا تخال أنت أيضاًانك ستوقف حركة أشغال العالم بجذبك كل الاموال من أيدي الناس وتعود منفرداً بالسطوة والغنى بعد العمر الطويل .

فتباً لهواجسك و بعداً لمقاصدك وسحقاً لك . أما ترى كيف تخفق على البشر أجنحة الموت بينما يكونون غارقين في لجج مطامعهم وتأهباتهم وراتعين في حدائق أفراحهم ومسراتهم ؟ أما تعلم انّ السارق قد يأتيك من حيث لا تعلم ؟أما يلوح في رأسك الممتلىء من أفكار الثراء مساءاً فكر واحد بامكان انحداره في حفرة الثرى صباحاً ؟. ولماذا هذا البخل الكثير وذاك العناء الغزير ؟. وهبك ملكت خزائن الملوك وجمعت كل ثروة العالم أليس مصيرك الى الزوال والفناء وأنت حامل على ظهرك كل تلك الاحمال الثقيلة ؟وهل يمكنك ان تمدّ عمرك الى أمد أطول مما تقتضيه الطبيعة ؟وهل تستطيع أن تردع بقوة أموالك مسير المركبات الى الانحلال ؟. فسوف توجد راحتاك المنقبضتان على كل تلك الكنوز التي جمعتها بالوهم منبسطتين اشارة الى خروجك من هذه الدنيا بلا شيء . وربما لا تجزى من سيرتك التي شوهها البخل سوى اللعنة حتى من ابنك الحبيب الذي به سررت

فلا يعتب العالم اذن اذا أثار عليك الفتن يا قائد البخل وارتفعت أصواته ضدك وتبادرت قواته الى الفتك بك لانك أنت العدو المبين له ولكل مصالحه وأنت المصرّ على هتك ستار هيئته واستعباد قلوب أبنائه بحشرك أهمّ أدوات مداره . ومع كل هذا فلا بأس من ترك ظفر لك في جسد التمدن لتكون مانعاً لهجوم التبذير

الكثير الضرر ولكن يجب ان تكون مقيداً بأوامر الكرم لكي تحصل الرتبة المطلوبة ما بين التبذير والبخل

الضغينة

من هذا الرجل المنتصب تلقاء عرش التمدن ذو الاسنان المكزوزة والاعين المتوقدة بالشرر ؟. من هذا الواقف وقوف النمر المستعد الى الوثوب على الفريسة ؟. هل هذا هو قائد الضغينة . نعم هذا هو قائد الضغينة المستعد أن يغدر بكل من يمحضه السلام ويركن اليه

فما أنت يا ايها الروح الحقود سوى عذاب أليم للارواح لانك متى أوقعت أماراتك في احد أعدمته الراحة والسكون وجعلته كالوحش الحائم على ما يفترسه . فلا ينام الا على فراش الغضب . ولا يستيقظ الا بأعين الانتقام ، ولا يروى الا بكرع الدماء . ولا يجد في نفسه حركة حرة لانه يقضي الليل والنهار مملوكا من خلقه ومأسوراً لحب انتقامه وواقعاً في خطر ضياع قدره . .هكذا يعيش صاحب الضغينة عبداً وأسيراً لاطواره ومعادياً ومبتعداً عن معاشرة الذين يلمحون طلائع هجماته فيجتنبونه

فلا ريب اذن في اضرار هذا الروح للمجتمع البشري اذ انه يوقع النفار ما بين الناس ويبعدهم عن بعضهم البعض ضداً لما يطلبه ميلهم الى الالتئام في دائرة التمدن توطئة للتعاضد في الانتفاع . فمن الواجب والحالة هذه أن يكون الصفح مرافقاً قائد الضغينة ورادعاً جماحه كما يجب على الضغينة ايضاً أن ترد اندفاع الصفح في بعض الظروف حذراً من انغلاق أبواب السلام او انطلاق أشواط التهافت . ولكل وقت

(النميمة)

ما لي أرى هؤلاء القوم يرشقون على هذا الشخص القبيح الوجه نظرات النفور والاشمئزاز ويبعدون عنه كأنه جيفة نتنة او جرب معد . وجميعهم يشيرون اليه بالبنان ويتغامرون . ولماذا كل واحد يظهر اشارات الخوف منه ويتمنى الابتعاد عنه ولماذا قد أطبق الناس على اجتناب هذا الرجل المسكين حتى لم يعد احد راضياً أن يكلمه او يلقي

عليه السلام . فليت شعري هل هذا رجل النميمة حيث لا يوجد من يستحق معاملة سيئة كهذه سوى النمامين

نعم هذا هو رجل النميمة وقائدها . ولذلك يتحاشاه جميع الناس و يبتعدون عنه غاية الابتعاد حذراً من آثاره الردية وأطواره الذميمة . لان دأبه أن يهتك حرمة الاسرار و يكشف الستر عن معائب البشر و يظهر كل الاعمال السائرة منهم سراً . حتى انه يفعل هكذا مع أخص أصدقائه و ربما تعمد أن يصاحب احداً ليطلع على خفياته بالاستيداع ثمَّ يذيعها بالنميمة . ولا يبالي من ارتداد وجعه على رأسه في أحوال شتى وذلك عندما تستقرُّ الخيانة عنده فيستوجب لعنة الجماعة ويعاقب بالصد والجفاء . نظير ذلك الافعوان الاسود الذي اذ يلسع تنسحق أنيابه و يسيل منها سمه فيمتصه فيموت

فلا شكَّ اذن بعظم أضرار هذا الروح الخبيث و بكل عدل يجب طرده من عالم الآداب والتهذيب وكسر شوكته بطرده من المجتمع الانساني . و بكل حق ينبغي النفار عنه والاجتناب منه اذا مامن احد يرضى بهتك أسراره وخفياته ولا يوجد أشدُّ على الانسان من وقوع أعماله السرية في السنة العامة واظهار عيوبه أمام الجمهور ولو أمكن وجود انسان خالٍ من النقيصة لحقَّ له أن ينتقد نقائص غيره ولكن لامتناع وجود الكمال في الانسان سقط حق الانتقاد عن الناس اجمعين لكي لا يقال المنتقد انزع الخشبة من عينيك ثمَّ انظر الى القشة في عين سواك

ولما كان السقوط المطلق لقائد النميمة قد يفتح طريقاً لهجوم الاشرار الى عمل العيوب بدون خشية كشف النقاب عن مثاويهم ليردعهم عن الكبائر بلجمه جماح الشهوات كان الافضل أن يبقى له صوت في آذان العموم لاجل التهديد ولكن بشرط أن يكون زمامه محفوظاً في يد قائد الكتمان

الكذب والنفاق

أما أنت يا قائد الكذب والنفاق فلا تعتبر الا كهادم لمباني الآداب الانسانية ومفسد لصلاح الغريزة البشرية ومستعبد لحرية الفطرة . لانك متى أوقعت أحكامك على احد أحدثت فيه بلبالاً عظيماً ظاهراً وباطناً اذ تجعله الخصم الالدّ لضميره كلما فتح فاه وتبقيه أضحوكة في أفواه سامعيه فتكسبه العار والفضيحة حتى انه يعود متقلباً على جمر الندم ومشمولاً بقنوط النفس كلما خلا في نفسه وتبصر بما انشأ لسانه من الاكاذيب والنفاق في مسامع الناس وبما سيرد عليه من التكذيب والاذلال . فينثني مصمماً ان يحفظ لسانه من شين المين ولكن غلبة الملكة لا تسمح له بذلك ما لم يحتمل مشقة عظمى فيعش اسيراً وعبداً لك يا قائد الكذب والنفاق

ولما كان الطبع البشري يأنف ويستنكف جداً من تكلم الخلاف ولا يميل الا الى صدق المقال واثبات الحقيقة كان الانسان الذي لا يصدق بلسانه ولا يستقيم بجنانه مكروهاً حتى من نفس طبعه ايضاً على انه يرى تطبيقه مضاداً طبيعته فيكره نفسه

فيجب على كل انسان ان لا يخضع الى حكم هذا الروح الشرير منذ نعومة أظفاره حيثما يهون التعود على الخير أو الشر وان يرفض كل كذب ينسب اليه مهما كان بسيطاً لانّ الذي يبتدئ بالصغائر قد تهون عليه الكبائر والذي يفكر بالقليل يتصل الى الكثير لانّ الفكر من شأنه ان يطير بأجنحة التصور الى قبة فلك التصورات حيثما لا يوجد نهاية ولا قرار

وهكذا فلا جناح على ملك التمدن اذا كان يهلك كل الذين يتكلمون بالكذب لانهم يسعون بمملكته الى الخراب بما تترك ألسنتهم المنافقة من الاضرار الكلية والجزئية كاثارة الفتن والقاء الفساد وتبغيض المحبين واغراء ذوي الغفلة والسذاجة ونحو ذلك . فهذه جميعها أطوار تعارض مسير التمدن وتباين آرائه ولا تتفق مع نزاهة الطبع الانساني بما فيها من الآثار الذميمة . فلا ظلم اذا طرد قائد الكذب

والنفاق طرداً مطلقاً لعدم نفعه في شيء واقامة الصدق والحق مكانه

الخيانة

ولما كانت الخيانة قائدة كل هؤلاء القواد وحاملة لواءهم الاسود واصلاً تتفرع عنه اكثر الخصال الناقصة والصفات الغير صافية كان الواجب أن يحكم عليها كما حكم على اولئك القوم وان يعامل قائدها بالطرد المطلق نظير قائد الكذب

لا عاش من للعهد خان خونا ‏ وبئس وغد لا يصون صونا

جرى أمامي الدهر فأتبعته ‏ عسى أرى خلاً فما وجدته

صحبت نذلاً يستدر ودّي ‏ وهو مولع بنكث عهدي

قد كان يدعو نفسه رب الوفا ‏ والآن في ذكري يهز الكتفا

أظهر لي الودّ ليجني زهري ‏ واذ تولاه لوى بالظهر

فصار قمحي عنده زوانا ‏ ودُرّي أضحت له أدرانا

عن مثل ذا داود قد تنبا ‏ قد اكلوا خبزي وداروا العقبا

لا بارك الله بذي الخيانة ‏ ولا رعى من ماله أمانة

الفصل الثامن

اليقظة

واذ أتمّ الفيلسوف كلامه حنى رأسه لدى المقام الملوكي ونزل من فوق الصخرة . وبينما كان السكوت سائداً على من في المسرح لمعت بارقة تخطف الابصار وأعقبها رعد يزعزع أركان القلوب فسقطت على الارض ارتياعاً ودهشة . وبعد زوال هذه الوثبة الجوية نهضت من سقطتي لأرى ماذا جرى فغشي نواظري ضباب التحير ولبثت عديم الحركة لانني لم أعد أشاهد شيئاً مما كان اذ وجدت نفسي منفرداً في برية منخفضة لا نبات فيها ولا حيوان

وعند ما أجلت نظراتي في أقطار هذه الفلاة القفرة أخذتني رعدة الخوف والهلع

وشملتني شمول الكمود والكآبة وعدت حائراً في أمري ، فسكون الموت كان يحوم على هذا القفر الوجوم ولم يوجد فيه من الكائنات سوى أتربة تبعثرها أرجل الرياح ، وحصباء توهم فراش بحر جاف ، وصخور تشهد على قساوة الزمان ، وكان الشفق كالحديد المحمى يتطاول على كور المغرب بمنظر يستفز الكروب ويستهز الرعشة ، ولم يكن مسموعاً في هذا الغور الراسخ في حضن الوحدة سوى نعب البوم وصراخ ابن آوى ، وكلما كنت أثبت تأملي كان يتزايد في باطني حراك الكمد والكرب ، وكلما أطلقت أنظاري الى السماء لانال تعزية رددتها ممتلئة من البهتة والجمود ، لانها ما كانت ترى سوى سحابات متوقدة تندفع من الجنوب الى الشمال ، طارحة على الارض ناراً ودخاناً ،


وبينما كنت أردد أفكاري في هذا المشهد الصامت ، وأسرح نواظري في هذه البيداء المجدبة ، واذا تل مرتفع يلوح لي فسرت اليه وصعدت على قمته ووجهت وجهي الى جهة المشرق حينما كان القفر يسبح تحت أعيني في تيار الظلام ، واذ أصغيت بكليتي سمعت صوتاً يناديني من بعيد قائلاً (هذه برية الشهباء فاتبشر بقدوم الخير) فقلت في نفسي من أين سيأتي الخير الى هذه الاقفار المجدبة والساقطة من أعين العناية منذ ألف سنة فأكثر ؟ ان في هذه البشرى ضرباً من المحال ، ثم التفت الى جهة الغرب لعدم اهتمامي بما سمعته واذ مد من الاخضرار يتموج من جانب الافق وكأنه يهم ان يتدفق على كل تلك الاقفار اليابسة فشملني العجب للحال وأخذت أشخص في هذا المظهر العجيب ذي الجمال الغريب ، وبعد ان تفرست قليلاً سمعت صوتاً يدوي من خلال الغمام و يناديني قائلاً (ابشري ابشري يا برية ارم القديمة وافرحي وابتهجي ياشهباء سوريا فها العناية الملوكانية مقبلة اليك والمراحم السلطانية هاجمة عليك فلا عاد يفترسك المحل أو يفتك بك الاهمال) فلما سمعت هذا النداء الكريم طفقت أرقص من شدة سروري وفرحي وقلت لاشك ولا ريب في قدوم الخير والرخاء الى هذه الديار المستعدة لقبول كل اصلاح لانها قد وقعت تحت أنظار عناية حضرة ذي الشوكة والاقتدار عبد العزيز خان دام ملكه

مدى الدوران وقد تشرفت بنعمته وجودته .

ولما شملني من الاندهاش أثبتُّ نظري في متن الافق وبينما كنت شاخصاً ببصري فيه رأيته قد استحال الى بحر من النور الساطع وأخذ يتلألأ نظير الشمس في السماء الصاحية . واذ لم أعد أستطيع النظر الى هذا المشهد المنير أغمضت عينيَّ على غشاوة الانبهار وأخذت أضرب في أودية الهواجس . ولما فتحت أجفاني وجدت نفسي مضجعاً على فراش النوم تحت سماء اليقظة

﴿ تم ﴾

وكان النجاز من طبعه في في مطبعة العمران في محروسة مصر في ١٥ يونيو سنة ١٩٢٢ والحمد لله أولاً وآخراً



« مدينة حلب »

فهرست



حضرة معز السلطنة سردار أقدس مولانا صاحب العظمة
الشيخ خزعل خان أمير نويان وسردار عربستان
مؤلف كتاب الرياض الخزعلية

الرياض الخزعلية

للافربين درر ، وللابعدين درر ، وبذلك سمي محساناً ، عظمة مولانا السردار أقدس ، الشيخ خزعل خان ، أدام الله علاه ، ووفقه الى مايحبه ويرضاه ، وزاد له بالاقبال والجاه ، بحوله ومنه .

عرف العراقيون والذين أموا العراق ، بهذا الملك المحبوب أبي الاشبال ، حاكما عدلا ، وعالماً عليماً ، وبراً منيلا ، وفضلا جزيلا ، وانتشر حمده في الافاق ، حتى بلغ السبع الطباق ، وكان ذكره كالمسك الفتيق عابق ، بين العوالم والخلائق ، وسارت الركبان ، تروي مدائحه ، وتشكر عوارفه ، بكل شفة ولسان ، في كل زمان ومكان ، واعترف القاصي والدان ، بأن معز السلطنة الشيخ خزعل خان ، هو خير من انجبت العرب من ذوي الجاه والسلطان ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده .

هذا هو الملك الذي شمل عدله رعاياه ، وعظمت مآربه وحسنت نواياه ، وخدم قومه بكل ما آتاه الله ، من مال وعلم وحياة ، فلا بدع اذا تعشقته القلوب ، وانه منها المحمود المحبوب ،

واننا نبشر الامة الكريمة العربية ، بان هذا المليك الكريم ذا الاخلاق المرضية ، قد نفح قومه من عرائس افكاره المتلالئة السنية ، بكتاب يبحث عن السياسة الانسانية ، أسماه بالرياض الخزعلية ، وهو كتاب ضخم الحجم ، جم الفوائد ، جمع فأوعى من النظريات البعيدة ، والاراء الصائبة السديدة والمواعظ الرشيدة ، مايهذب الاخلاق ، ويلطف الطباع ويسدد الخطى ، ويسير بأهل الضلالة الى الهدى ، وما ليس بعده من زيادة لمستزيد ، فكان لطلاب الفوائد ، والراغبين في المحامد ، والمتفكهين من الادباء ، والمجتهدين من الالباء ، بيت القصيد

وقد جاء هذا الكتاب النفيس ، في مجلداته الاربعة ، بنيف وألف وثمانية صفحة ، وقد طبعته مطبعة العمران ، في ظلال عظمة مؤلفه المحسان ، وهو يطلب منها ومن عموم المكاتب المصرية الشهيرة ، وقيمته على سعته وعظم فوائده ، مائة قرش صاغ مصري ، خالص أجرة البريد

روايات العمران

بقلم

عبد المسيح انطاكي بك

لحضرة الاستاذ صاحب العمران رويات بديعة منها ماهو مسهب ومنها ماهو مختصر واكثرها تاريخي أراد بها ان يبث حوادث التاريخ بين الناس بثوب فكاهي طلي وقد أصدرت مطبعة العمران عدة مجموعات من هذه الروايات الكثيرة الرواج وقيمة المجموعة الواحدة خمسة قروش صحيحة عدا اجرة البريد وهي تطلب من ادارة العمران بمصر ومن عموم المكاتب الشهيرة

مكتبة العمران

الحمد لله الذي أعزّ دولة العلم وعلم الانسان ما لم يعلم . وبعد فلما كنّا قد آلينا على أنفسنا خدمة الامة الكريمة العربية من طريق العلم والصحافة وهي أقوم وأشرف طريق حتى صرفنا في ذلك خمساً وعشرين عاماً وعيّدت مجلتنا العمران يوبيلها الفضي في ظل ثقة ورضاء حضرات قرائها الكرام ومحبي العربية الشريفة ورعاية أقطاب السادة المسلمين العظام وأركان النهضة العربية الكرام وفي مقدمتهم ملوك العرب وأمرائهم الفخام حتى اتسع بفضلهم نطاق المجلة وعظمت ادارتها وكبرت مطبعتها واتسعت مكتبتها فصار لدينا اكبر المطابع وأعظم المكاتب في الشرق وأشركنا معنا أنجالنا في الخدمة وقضت الضرورة بتقسيم الاعمال ليقوم كل فرد منا بما أسند اليه من المهام ــ فاننا نفتح هذا العام المبارك بتجديد عهدنا للعرب بزيادة العناية وتوخي الخدمة النافعة بهذه المكتبة الواسعة النطاق المزدحمة بالصحف والاوراق واننا وحقّ العرب والعربية لا نبغي من ذلك أرباحاً زائلة او منفعة عاجلة بل مقصدنا الوحيد خدمة العرب والاسلام بخدمة التمدن العربي بما انتجته عقول نوابغ العرب قديماً وحديثاً ولهذا فقد أسسنا محلاً واسعاً للمطبعة وأنشأنا فيها أعظم العدد والماكينات كما نظمنا المكتبة ورتبنا فيها من الكتب القيمة ما يعزّ وجوده لدى الغير وأقررنا المهاودة في الأثمان تسهيلاً لنشر العلم للطلاب ويرى قومنا الاعزاء في برنامج مكتبتنا المطبوع على حدةٍ من مهاودة الاسعار وبدائع الآثار ما تقر به العيون وترتاح اليه النفوس والله المستعان

وادارة هذه المكتبة منوطة بولدينا فتح الله افندي ويحي افندي وهما مستعدان لتلبية كل طلب بالسرعة والاخلاص والأمانة

هذا والمكتبة مستعدة لمشترى الكتب الخطية النادرة ولطبع المؤلفات الحديثة المفيدة على نفقتها والمخابرة في ذلك منوطة لولدينا المشار اليهما ايضاً

عبد المسيح انطاكي

مطبعة العمران

هواويني

في حارة الرويعى رقم ٩

بجوار ميدان الخازندار

لقد وفقنا الله سبحانه الى خدمة أمتنا الكريمة العربية بهذه المطبعة التي أصبحت والحمد لله في مقدمة المطابع المصرية اتقاناً وهي على أتمّ الاستعداد لطبع كل مايطلب منها طبعه من كتب وجرائد ومجلات ومذكرات المحامين ومطبوعات الدوائر والتجار على أنواعها في اللغات العربية والتركية والفارسية والانكليزية والفرنسوية والتليانية والالمانية واليونانية والارمنية الخ . ولدى المطبعة مصحح خاص من علماء الازهر الشريف لتصحيح الكتب والمجلات . ومترجم خاص للغات الاجنبية . وقسم خاص للتغليف بالسلك والتجليد المتقن . ولاتساع هذه المطبعة يمكنها اصدار الكتب والجرائد بأسرع ما يمكن من الوقت . وخلاصة القول ان مطبعتنا مستعدة لارضاء الزبائن من كلّ وجه مع تساهل بالاسعار لا يمكن ان تزاحمنا فيها المطابع الاخرى بوجه من الوجوه

هذا ولدى المطبعة قسم خاص لطبع الكتب والروايات على نفقتها مساعدة لاهل العلم والادب بشروط ملائمة أحسن ملاءمة للمؤلفين

ومطبعة العمران مستعدة لحفر أسماء أصحاب المحلات التجارية والمؤلفين على الزنك بعد تكتيبها لاشهر خطاطي العرب صاحب العزة نجيب بك هواويني الشهير باسعار في غاية المهاودة فتزيد المطبوعات التجارية رونقاً وبهاءً

وموضع المطبعة متوسط في مدينة القاهرة في حارة الرويعي رقم ٩ بجوار ميدان الخازندار ومخابرتنا بالبريد فلتكن الى بوستة الفجالة صندوق رقم ٤٣ وبالتليفون ٩٥ — ٤٠

وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان

مدير المطبعة

يحيى عبد المسيح انطاكي

هواويني